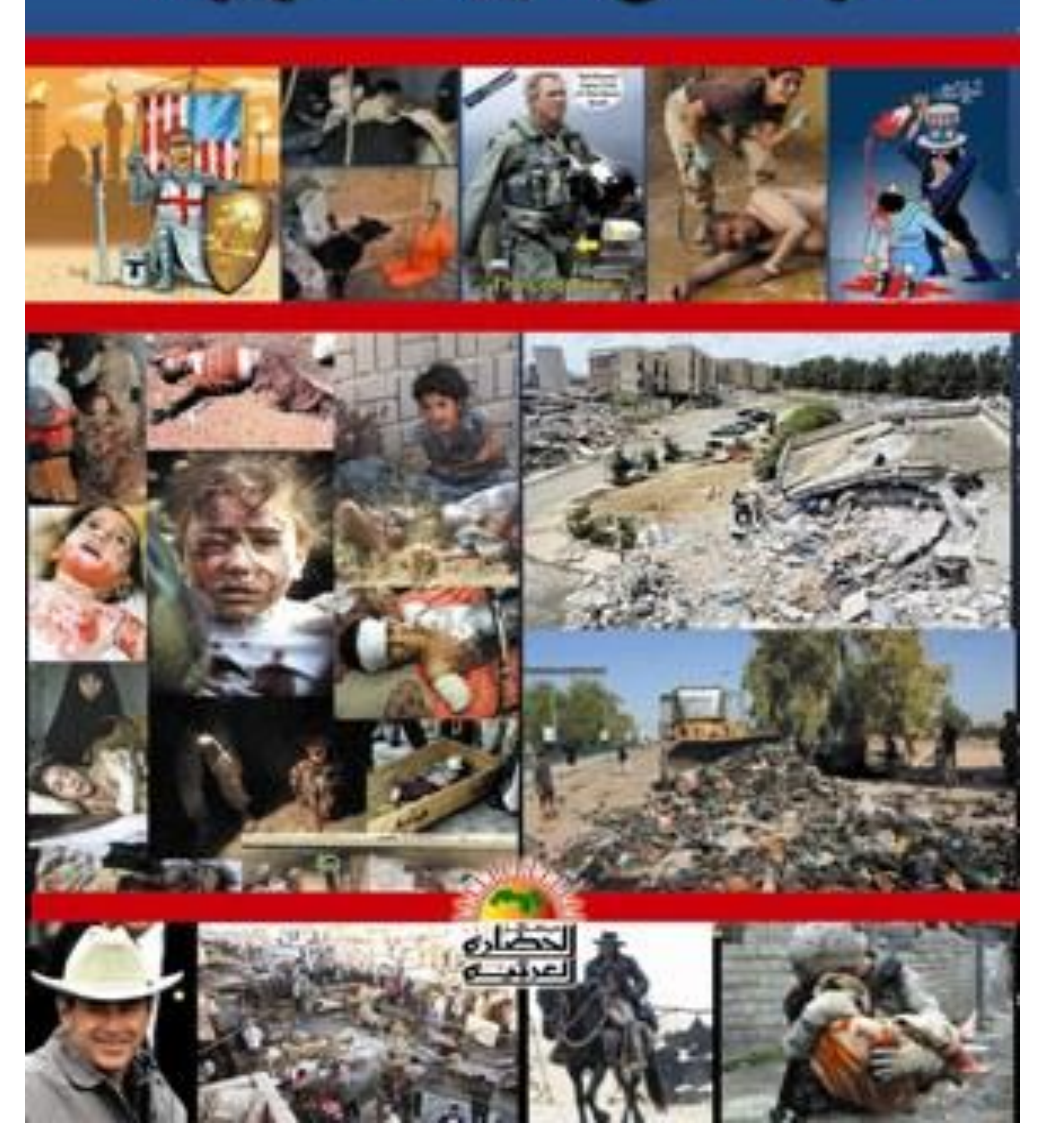
التجاني بولعوالي

الموت على طريقة الكوبوى





- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆◆◆



مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

التجاني بولعوالي

الموت على طريقة الكوبوي



الكتاب: الموت على طريقة الكوبوي

الكاتب: التجاني بولعوالي
(المغرب - هولندا)

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠٠٨

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:
وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: عثمان العجمى

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٩٧٠٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-936-2

لولعوالى، التجانى.
الموت على طريقة الكوبوى/ التجانى بولعوالى. – القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٨.
١٤٤ ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٢-٩٣٦-٢٩١-٩٧٧
١- أمريكا – العلاقات الخارجية.
٢- المقالات السياسية.
أ- العنوان ٣٢٧,٧٣



يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي:

"اشتد غضبي على من ظلم من لم يجد له ناصرًا غيري".

إهداء

رجل التحدي

* إلى ملهم الأجيال د. المهدي المنجرة

رجل يتحدى عاصفة سوداءْ
بمداد أبيض يدفق مثل سنى ينثر
أنوارا وحروفا خضراءْ
تنبت في أفئدة الظمآى
أفكارا ورؤى عصماءْ
....
رجل يتحدى السيفْ
ليس بحوزته سوى أوراق صفراءْ
يلهمها الحرفْ
لا يخدعها كرم الأعداءْ
أو من هم قربى!
في زمن لا يعلو فيه إلا صوت الزيفْ
....
رجل يتحدى الخوفْ
يتقلد صهوة خيل لا ترهبه الطلقاتْ
يتفقد حال الفقراء
وبيت المال تخوصص
وديار الإسلام على إيقاع الهيب هوبْ
تتعولم من طشقند إلى الريفْ
....

رجل يتحدى عاصفة سوداءْ
رجل يتحدى السيفْ
رجل يتحدى الخوفْ

فهرس الكتاب

مقدمة

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من المقالات الفكرية والسياسية، التي كتبت بأسلوب ميسر يتخطى معايير الكتابة الأكاديمية والبحث العلمي، وهي مسكونة بغرض تحقيق التواصل الكافي مع القارئ، الذي يستطيع من خلال قراءته لهذه المقالات أن يتأتى له فهم بعض معادلات الواقع العربي والإسلامي المعاصر، وقد كتبت أثناء السنوات الأخيرة، وفق تواتر المستجد من الأحداث والقضايا التي تتطرق إليها، لتنتشر توا في مختلف المنابر الرقمية والورقية العربية، فتساهم، في حينها، في تفسير جملة من الوقائع والنوازل، بطريقة تتجاوب وطبيعة الإنسان المسلم المعتدل، الذي صار يتثاقل تحت وطأة النظام العالمي الجديد، وهو محاصر بالدبابة والإعلام، في ترابه وماله ودينه وشرفه... فكانت مقالات هذا الكتاب بمثابة صرخات رفض عميقة، في وجه ما يعتري كيان الإسلام في ليل العولمة المدلهم، من إساءات واتهامات ومساومات، صرخات لقيت صدى طيبا في قلوب المستضعفين والمنبوذين والمضطهدين والمقهورين... مادام أنها تتحدث بلسان حالهم الذي عقده الظلم والجور والازدراء واللااكتراث!

وقد ارتأيت أن أعنون هذا الكتاب بـــ (الموت على طريقة الكوبوي)، وهو عنوان لمقالة رئيسة، تناولت فيها قضية الاحتلال الأمريكي للعراق، بأسلوب جديد، يوفق بين الكتابة الأدبية الرمزية والتحليل الفكري التأملي، لفت انتباه الكثير من القراء والمهتمين والمثقفين، مما بوأ هذه المقالة لأن تنتشر في عشرات المواقع والمنتديات الرقمية، من قبل المشرفين عليها والمسهمين فيها، فكنت أفاجأ بوجودها في مواقع أو منابر لا علاقة لي بها، مساهمة أو

قراءة. وقد حاولت أن أنسج المقالات والنصوص الأخرى على المنوال نفسه الذي كتبت به المقالة الرئيسة، على أن يربط بينها خيط دلالي رفيع، يتلمسه القارىء في كل حيز من الكتاب، بشكل معلن أو خفي، وهذا الخيط الدلالي الرفيع يتمثل في أن الأمة العربية والإسلامية برمتها، تغتال أمام أنظار العالم على الطريقة الأمريكية المتصهينة أو الطريقة الصهيونية المتأمركة! ومثل هذا الاغتيال يكون سواء أبتدخل أمريكي أو صهيوني مباشر، كما يحصل في فلسطين والعراق وغيرهما، أم عن طريق أنظمة الحكم التي ما هي، في أغلبها، إلا أدوات أيديولوجية وعسكرية رهن إشارة البيت الأبيض، ويترتب عن ذلك لا محالة الموت، ليس فقط في بعده المادي، كأن تدمر المنشآت وتزهق الأرواح وتباد الأعراق... وإنما في بعده الحضاري، كأن ينتهب التراث وتزيف الحقائق وتطمس الهويات...

ثم إن غرض التواصل الإيجابي مع القارىء من خلال مضامين هذا الكتاب، ينطوي على رسالة شريفة تقتضي من كل مثقف مسؤول أن يضع خطوة على درب توضيحها وتبليغها، لذلك رهنت نفسي وقلمي لخدمة هذه الرسالة الشريفة، وهي إماطة اللثام عن حقيقة الإسلام الضائعة بين أنقاض التناحر المذهبي، ورياح التكالب الأجنبي!

والله وراء القصد.

التجاني بولعوالي

أمستردام بتاريخ 18 فبراير 2007/ 1 صفر 1428

تقديم

إيديولوجيا الكوبوي

بقلم/ د. يحيى اليحياوي

قرأت بعناية بالغة مؤلف الصديق التجاني بولعوالي, وتأملت كثيرا في العديد من معطياته وأفكاره, وتأكد لدي بالملموس أن ما قرأته هنا لا يختلف كثيرا عما قرأته للشخص من ذي قبل هنا أو هناك, أو ما تداولته وإياه في لقاء وحيد قصير بيننا, إحدى شهور صيف العام 2007, تقاطعنا خلاله واختلفنا على حد سواء.

إن للرجل ثوابته وقناعاته, يسطرها ويعبر عنها بالواضح الصريح ودون عقدة نقص, هناك "ببلاد الأغيار" حيث يعيش. وله مواقفه وآراؤه, يسوقها دونما مراوغة أو لي لعنق الحقيقة. وله تصوره الخاص وأحلامه أيضا, يوجد لجزء منها طريقه إلينا عبر المقالة والاستجواب, فيما يجد الطريق للجزء الثاني, عبر الكلمة الشاعرة ذات "النكهة الصوفية", الموغلة في الدين والتراث العربي/الإسلامي, هو الإبن النموذج لجبال الريف الشامخة, التي لها في خاطري إحساس خاص, ولي مع أهلها مصاهرة وود عميقين.

ولهذا السبب, ولأسباب أخرى ربما, فإن كتابات التجاني بولعوالي غالبا ما تكون حمالة لشحنة عميقة (تصل مبلغ الغضب والانتفاض) تمزج بين البعد التحليلي الصرف, وبين ما يتراءى للمؤلف أنه بدائل لتجاوز واقع الحال المر, واستنبات سبل استنهاض مقومات الأمة واستعادة وعيها, لا بل وإعادة بناء ذات الوعي, بالنظر ليس فقط إلى ما أدركه الآخرون من حولنا, بل وأيضا بالقياس إلى إمكاناتنا وطاقاتنا المتجمدة, أو المراد لها أن تكون كذلك.

لا يخرج كتاب "الموت على طريقة الكوبوي" عن ذات المسلكية, بل يمتح منها, ينسج بامتداد لها, تسطيرا لما يعتمل بنفس الكاتب, أو استنكارا لما يجري من حوله. هي نصوص تبدو مستقلة بعضها البعض, لكنها ليست كذلك إلا بالمظهر. إنها محكومة بالجوهر, بخيط ناظم, خيط الغضب الواضح, و"صرخات الرفض" المستترة من بين ظهراني كلماتها وأسطرها.

إن للعنوان هنا دلالة خاصة, فهو بحد ذاته صرخة رفض بوجه الكوبوي الأمريكي, الذي لا يقتل بدم بارد فحسب, بل (وهو المدمن على ذلك منذ غابر العصور) يتفنن في القتل, عبر سلوك التعذيب, والتنكيل بالجثث, وتصويرها, وإشاعة مدى انتشارها ليمتزج الفعل بالعبرة, بالصلف والقسوة, بالتعالي والعجرفة وبإهانة الآخر.

إن الكوبوي الذي أباد الهنود الحمر, هو ذات الكوبوي الذي قتل واغتصب, ونكل بالجثث بفيتنام كما بالعراق وأفغانستان, بالصومال كما بفلسطين, كما بغيرها. هو ذات الكوبوي الذي لم يتوان في قتل البشر والحجر فحسب, بل وامتدت فعلته بالعراق خصوصا, لدرجة مطاولتها الرموز والمقدسات, إما بجهالة من لدنه لقيمتها, وإما استهتارا بمقومات الأمم أو بهما معا دون تمييز.

سلوك الكوبوي هنا ليس سلوكا عرضيا, تذكي ناره الظروف وتستوجبه السياقات, بل هو فعل وإحساس وذهنية, وأنا مستعد للقول بأنه أضحى منظومة قيم متكرسة في الشعور الجمعي الأمريكي, منذ الآباء المؤسسين الأوائل وإلى حدود اليوم.

إن التجاني بولعوالي لا ينتفض هنا ضد الكوبوي, وضد الآخر في مطلقه, على خلفية من نظرية في المؤامرة قد يقول البعض, إنه ينتفض بالآن ذاته, وبالقوة ذاتها ولربما أكثر, ضد أوضاع الأمة

بالداخل, التي استسلم قادتها للكوبوي مجانا, بل وسايروه دونما ممانعة أو تمنع يذكران:

+ إنه ينتفض ضد واقع الأمة التي لا تعير المعرفة كبير اعتبار, لا بل تحاربها وتتخذ منها منظومة حكم وحكامة, وتستهين بحامليها, وتدفع برموزها للهجرة القسرية للغرب, فتهدر بذلك حقوقهم وحقوق الأجيال عليهم, لتستقطبهم مختبرات هناك, تضعهم بمستوى كفاءتهم, وتعيد لهم بعضا من الكرامة التي "انهدرت" ببلدانهم هدرا.

إنهم ضحايا "العنزة الجرباء" يقول بولعوالي, التي لا تحتكم إلى تصور, ولا تتوفر على رؤية, ولا هي قادرة بسبب من تعاجزها وليس من عجزها يؤكد المؤلف, على تثمين مقدرات الأمة, لتتجاوز حالة التخلف والإحباط والغبن التي تكتنفها, ولكنها لا تأبه.

+ وهو ينتفض ضد الاستهداف المستمر للإسلام والمسلمين بدون كبير مسوغ بالغالب الأعم, أو بسبب من سلوك بعض المسلمين الذين غرر بهم, أو تطرفوا في الفهم والتأويل, أو ضاقت بهم الأرض ذرعا, فحملوا لواء الجهاد ضد عدو يجاهر بعداوته للإسلام, معملين بذلك واجب رد الفعل بعدما سلب منهم حق الفعل, أو تواطأ قادتهم لإهانتهم, إما بالتآمر المباشر, أو بالصمت المميت الذي لا يختلف كثيرا عن التآمر.

إن تضافر سلوك الكوبوي المتعالي, وخطاب الصدر الكنسي المتطرف, لا يشي فقط بطبيعة الهجمة الجديدة/المتجددة التي رفع لواؤها لمحاربة "الخطر الأخضر", بل ويشي أيضا بمدى الكراهية التي بدأت تطاول الإسلام, هو الذي وفر الأمن والطمأنينة لأهل الذمة من النصارى واليهود, ولقرون عديدة من الزمن.

+ ثم هو ينتفض, فضلا عن كل ذلك, ضد غياب الديموقراطية والوعي الديموقراطي بالعالم العربي/الإسلامي, وضد الطروحات التي تتماهى مع مشاريع "ديموقراطية الضغوط الخارجية", كما

حصل بالعراق منذ غزوه واحتلاله بمارس من العام 2003, وكما كان مزمعا العمل على نهجه بالمنطقة العربية كلها, لولا سد المقاومة العراقية التي أفسدت على المشاريع إياها "تكهتها" ووتيرتها.

إن الديموقراطية نبتة إنسانية, يقول بولعوالي, وليست بضاعة قابلة للاستيراد أو النقل, إنها ثقافة, إنها قيمة, إنها تراكم حضاري غير خاضع للارتداد, وغير قابل لمنطق المنحة من فوق. إنها نقيض إيديولوجيا الكوبوي المدمنة على تدمير البشر والرمز والحجر, وليس لها أدنى معرفة بما هي الحرية أو الديموقراطية أو الحضارة.

هذه هي التيمات الكبرى التي تشغل بولعوالي لدرجة الهوس. إنه لا يمل من تناولها, وتقليبها بحرقة جارفة, تشارف على الصرخة العارمة, التي تستفز لكنها بالآن ذاته تحذر وتجند.

لم أكتب هذه الكلمات إكراما لشاب له بنفسي مرتبة مميزة فحسب, بل كتبتها تحديدا لأن التيمات المتناولة من لدنه هي التيمات ذاتها التي تشغلني, تقض مضجعي, وتوقظ صرخات الغضب من بين أضلعي, آناء الليل وأطراف النهار.

د. يحيى اليحياوي

الرباط, 15 أبريل 2008

الموت على طريقة الكوبوي

نرجسية الأمريكي بين ولاء الآخر وتحديه

حقيقة مصطلح الكوبوي

من منا لا يعرف ولو نزرا يسيرا عن كلمة الكوبوي cowboy، وعن الأفلام التي ترتبط بصلة وثيقة بهذه الكلمة، التي تقابل أو تترجم في العربية برعاة البقر، ومن منا لا يعلم أصل هذه الكلمة الإنجليزي، وأين ظهرت أول ما ظهرت هذه الأفلام ذات المنبت والجو الأمريكي، ومن منا لم يشاهد ولو لقطات معدودة من هذه الأفلام الجميلة التي أتقنتها الصناعة الهوليودية، وبصمتها بطابع الجودة والمتعة والتشويق، ومن منا لا يتذكر أسماء أو وجوه أولئك الممثلين الساطع نجمهم، الذين انشدت إليهم أنظار الملايين المتعطشين والمشغوفين بالسينما والصورة والحركة... عبر سائر أرجاء المعمورة. كلنا، إذن، أو أغلبنا يعرف ولو جانبا معينا مما توحي به كلمة الكوبوي، وإن لم يعرف أو خانته الذاكرة فما عليه إلا أن يستحضر صورة ذلك الرجل الأمريكي، الذي طالما نراه في إشهار خاص بسجائر المارلبورو، وهو يشعل لفافته بعود يابس يأخذه من حوض النار.

لكن، من منا يستطيع استكناه الدلالات العميقة لهذه الكلمة الإنجليزية المشهورة، التي تتداول على كل الألسنة، ولو أنها لا تفقه شيئا من هذه اللغة التي تنتمي إليها هذه الكلمة، بل ولا تدري أنها أصلا كلمة إنجليزية! ومن منا يملك إمكانية استنباط الجانب الوظيفي لذلك الرجل أو الإنسان الذي يطلق عليه اسم الكوبوي؛ هل هو مجرد راعي بقر مثل أقرانه من رعاة الماعز بجبال الأطلس، أو الإبل بالجزيرة العربية وما يتاخمها من بلدان، أو الأغنام بسهول أستراليا الخضراء

وهضاب ايرلندا الخلابة، أو اللاما بأراضي البيرو؟ أم أن وظيفته تتعدى الرعي إلى ما هو أبعد من ذلك، وهذا ما يمكن أن تلاحظه في تلك الأفلام، التي تصور لك الكوبوي راعيا للبقر، ليس كأمثاله من رعاة الحيوانات الأخرى في البلدان الأخرى، فهو يتميز بصفات جذابة وخارقة، تجعلك تتعاطف معه في محنته مع الحيوان (البقر، الخيل، الأفاعي، الطيور...) والطبيعة (الجبال الوعرة، الوديان، المغارات، الصحاري...) والإنسان (الهنود الحمر)، ومن منا بإمكانه تأويل ذلك الصلف والغرور الذي يتحلى به هذا الرجل، وهو في حقيقة الأمر، إنما استمده من هويته الأمريكية المجبولة على الاستعلاء والكبر والتفرد المصطنع.

إن مصطلح الكوبوي يتعدى دلالته الحرفية أو اللغوية التي تعني راعي البقر، إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يحيل على ذلك الإنسان الأمريكي المسكون بهاجس الحركة، بحثا عن مغنم ما أو مورد ما أو ثروة ما، مما يجعله يقع باستمرار في التنازع مع الآخر، وهذا الآخر يتعدد حسب السياق الذي يتموقع فيه الكوبوي، باعتباره صانعا للحدث إن حقيقة أو زعما، ومن ثمة يستحق ـــ وفق السرد الفيلمي والأسطوري ـــ أن يكون رمزا للقوة والتفرد والشخصية المتميزة والخارقة. هذه الخصائص المستملحة التي ينبهر بها متلقو أفلام الكوبوي، لا تكون أو تنشأ إلا في مقابل خصائص أخرى مستكرهة أو مستهجنة منسوبة، سواء للخصم التاريخي الذي هو الإنسان الهندي الأحمر، أو للخصم المستقبلي الذي سوف يحاول الكوبوي تكرار نفس السيناريو القديم معه، ليضمن بذلك الاستمرارية والديمومة لأسطورة الإنسان الأمريكي المتميز!

صمود الهنود الحمر التاريخي في وجه الكوبوي

عندما نتصفح التاريخ الأمريكي، الذي هو في الحقيقة تاريخ الرجل الأوروبي الأبيض الذي دخل القارة الأمريكية مستعمرا، فأصبح مُعمّرا، نكتشف مدى حجم التزييف والطمس الذي مس هذا التاريخ، عندما غُيّب السكان الأصليون الذين هم الهنود الحمر، ليس فقط من متون الأسفار، بل كذلك من تقاسيم الجغرافيا، كما غيب الأمازيغ والأكراد والأهواز وغيرهم من التاريخ الرسمي للدول العربية والإسلامية، لكن الأفلام التي تقدمها معامل هوليود للصناعة السنيمائية، لا تحكي التاريخ بهذا الضمير الحي الذي يشير إلى أن أسطورة الكوبوي، إنما شيدت على أنقاض أسطورة الهنود الحمر، بقدرما تسرد أقاصيصها بلسان الإنسان الأمريكي الذي يواجه الخطر الهندي من كل حدب وصوب، حيث الموت المحمول على رأس رمح أو المودع في رأس سهم قد يداهمه في كل مكان أو آن، لذلك فهو يعيش في حذر دائم وحيطة مستمرة وحركة دءوبة، مما يجعل الفيلم أكثر إثارة وتشويقا، وهذا هو الهدف الهام الذي يخطط له مخرجو ومنتجو ومشكلو هذه الأفلام، لكن في لب هذا الهدف الهام ينطوي ما هو أهم؛ إنه ذلك الخطاب الأيديولوجي الذي ينسج هالة من الروعة والتفرد حول الكوبوي، الذي يرمز إلى كل أمريكي مسكون بقيم الهوية الأمريكية، التي تنزع إلى السمو على باقي الأجناس والثقافات والألوان والديانات، وهو بذلك يُسَوِّق المفاهيم والأفكار (الديموقراطية، حقوق الإنسان، النظام العالمي الجديد، العولمة...) والسلع والبضائع (الماكدونالدز، الكوكاكولا، الجينز...) وغير ذلك من المنتوجات الرأسمالية.

على هذا الأساس، يبدو أن ما تقدمه أفلام الكوبوي يناقض حقيقة الواقع أو واقع الحقيقة، ويزور تاريخ العالم الجديد الذي اكتشفه الرجل الأوروبي (كريستوف كولومبوس)، ويحرق ذلك التاريخ الأصلي الذي تبدأ منه أمريكا الحقيقية، ألا وهو تاريخ الهنود الحمر،

وفي هذا دلالة عميقة على أن الرجل الأمريكي الأبيض إنما هو أمريكي ليس بالتاريخ والأصل والجذور، بل بالاستعمار والاستحواذ واسترقاق الناس، فتاريخه يبدأ من يوم سطا على أرض الغير وراح يعيث فيها فسادا، بقتل أشدائها، وسبي نسائها، وتعذيب شيوخها، ونهب خيراتها، وهو بهذا ــ أي التاريخ الأمريكي ــ يبدأ بصفحة سوداء، موشومة بجرائم الأوروبيين الذين داهموا بقضهم وقضيضهم عالما كان ينعم بالهدوء والسلام والطمأنينة، فقلبوا حقيقة التاريخ رأسا على عقب عندما اعتبروا استعمارهم لأمريكا اكتشافا، وسرقتهم لتراث الهنود الحمر دفاعا عن النفس، ومسخهم لهوية السكان الأصليين تحريرا.

وهذا السيناريو نفسه نشاهده مرارا وتكرارا في أفلام الكوبوي، هذه الأفلام التي تكرس مفهوم أو فكرة الصراع المستمر الدائرة رحاه بين الإنسان الأبيض (الأوروبي القديم/الأمريكي الجديد) والإنسان الأحمر (الهندي/الأصلي)، وهذا الصراع يكون حول الأرض، والأرض هنا لا تدل على تلك البقاع المحدودة التي تصورها الأفلام، وإنما تحيل على أمريكا برمتها التي هي تاريخيا ملك سكانها الأصليين، والصراع هنا ينسجه طرفان؛ أولهما المستعمِر الذي يؤدي دوره الكوبوي/الدخيل/الجلاد، وثانيهما المستعمَر الذي يتمثل في الهندي الأحمر/الأصيل/الضحية. ويحاول الكوبوي السينمائي بشكل أو بآخر تبرير ذمة الأمريكي الأبيض، وجعله رمزا للتحرر والعدالة والأمن، وتحت هذه المفاهيم المزيفة التي اكتسبت شرعية قانونية، كما اكتسب كذلك مفهوم محاربة الإرهاب طابعا شرعيا، يتم قهر الهنود الحمر وإقصائهم وطردهم من المجتمع المدني بإبعادهم عن المدن أو عزلهم في محميات، والقهر هنا، يتخذ أشكالا متنوعة، كأن يكون معنويا يحطم نفسية الهندي الأحمر بالإساءة إلى مقومات هويته وثقافته، أو

اقتصاديا بتجويعه وفصله عن موارد العيش الكريم، أو سياسيا بإقصائه عن المشاركة السياسية، أو غير ذلك.

تشير بعض التقارير إلى أن عدد السكان الأصليين الذين هم الهنود الحمر، يصل إلى حوالي 4,1 مليون نسمة، وهذا الرقم يشكل 1,5% من العدد الإجمالي لسكان الولايات المتحدة الأمريكية، الذي سوف يتجاوز السنة الحالية 295 مليون نسمة، كما توقع مكتب الإحصاء الأمريكي، ثم إن ذلك العدد المتبقي من الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية مشتت بين 556 قبيلة، ومن بين كل أربع قبائل تعاني قبيلة واحدة فقرا مدقعا، هذا بغض النظر عن أن أزيد من نصف مليون منهم يعيش في محميات مستقلة، حيث تتفشى مختلف السلوكات المنحرفة، كإدمان الخمور والمخدرات والانتحار ونحو ذلك.

استنادا إذن إلى هذه المعطيات الواقعية، يمكن أن نسجل ملاحظتين؛ أولهما هي أننا عندما نقابل عدد الهنود الحمر الرسمي بالبقية الباقية من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، نرى أن ثمة بونا شاسعا، حيث لا قياس مع وجود هذا الفارق الضخم، وهذا يعني في حد ذاته مدى شراسة سياسة الإبادة التي سنها الاستعمار الأوروبي لأراضي العالم الجديد، هذه السياسة التي ما تنفك الدولة الأمريكية الحديثة تمارسها، عن طريق عزل الهنود عن واقع الحياة المدنية وإلقائهم في المحميات وعلى هوامش المجال الحضري. وهذه الملاحظة العلمية تقودنا إلى استخلاص ملاحظة ثانية حول تناقض خطاب السياسة الأمريكية، التي تُنَصِّب نفسها باعتبارها راع للأمن العالمي وحام لحقوق الإنسان، لكنها تغمط حقوق فئة مهمة من الشعب الأمريكي، والأفظع من ذلك أن ذلك الغمط والتهميش يطال ما هو حضاري في التاريخ الأمريكي، فطمس هوية الهندي، ومسخ مقومات ثقافته، والحد من امتداده الواقعي والتاريخي يعني، بشكل أو بآخر، حرق جذور

الحضارة الأمريكية، التي ما هي إلا استنساخ للحضارة الاستعمارية الأوروبية، وجعلها حضارة لقيطة بلا بداية أو أصل حقيقي يتجذر في التربة الأمريكية.

من خلال هاتين الملاحظتين، يبدو جليا السلوك الطاغي على عقلية الإنسان الأمريكي الأبيض، وهو سلوك ينزع إلى عدم الاعتراف بالآخر، بل والتضحية بهذا الآخر من أجل المصلحة الذاتية، وهذا ما يحيلنا على ممارسات الاستعمار التقليدي الذي راح يرتكب أبشع المجازر، قصد تعبيد الطريق نحو تحقيق أهدافه ومقاصده الكولونيالية، وهذا يعني أن هذا الأمريكي إنما ورث سلوكه التسلطي المسكون بالعجرفة والاستبداد والأنانية عن أجداده الأوروبيين، الذين بلغ جشعهم إلى حد المتاجرة في الإنسان الأفريقي عبر أسواق النخاسة والاسترقاق، التي كان قد تصدى لها الإسلام، فتلاشى مفهوم تجارة العبيد من قاموس الإنسانية أثناء المد الإسلامي، لكن الأوروبيين أحيوا هذا المفهوم من جديد، فصارت أمريكا آنذاك أكبر مستورد ومستقبل للرقيق الأسود المستجلب من أفريقيا.

في المقابل كان السكان الأصليون يتعرضون للموت على طريقة الكوبوي، حيث يتخذ الموت طابعا إباديا، يستهدف التنحية الكاملة للهنود الحمر من ذاكرة التاريخ الأمريكي، لكن رغم وحشية هذا الموت، ولا شفقة الكوبوي، فإن السكان الأصليين للولايات المتحدة الأمريكية لم يتنحوا، وأن الهوية التي يحملونها لم تتلاش معالمها، بل وأن الثقافة التي يمثلونها استطاعت أن تتجاوز الحدود، وتجد من يتجاوب معها من غير الهنود الحمر، فيستفيد من إمكاناتها الإبداعية المتميزة، ويتقمص بعض جوانبها الإنسانية وهكذا.

تصدير عقلية الكوبوي إلى الخارج

عندما نتصفح أوراق التاريخ الأمريكي الحديث، نكتشف أن رجل السياسة الأمريكية، الذي ينصب نفسه سيدا للعالم، ما فتئ يعامل معارضيه ومؤيديه سواء بسواء؛ بعقلية الكوبوي المبنية على الصلف والنرجسية والعجرفة والكبر المطلق، حيث لا يصغي إلا لصوته، ولا يصدق إلا ما يفكر به عقله، ولا ينفذ إلا ما يراه يناسب مصالحه الذاتية والاستراتيجية، وإذا ما تقاطع مع أحد في وجهة نظره أو أيديولوجيته، لا يتوانى في قمعه أو جلده بعصاه الغليظة أو تنحيته من الدنيا، كما ينحي الكوبوي قبائل من الهنود الحمر بأكملها، تحت ذريعة أنها تهدد بشغبها الأمن العام! وهذا ما زاولته الدولة الأمريكية بعساكرها ودبلوماسييها في أزمنة مختلفة وأمكنة كثيرة. إذ جعلت من بلدان كثيرة مختبرات ميدانية لتجاربها العسكرية، حيث حاول الكوبوي تصدير آلياته الإبادية إلى الخارج، فصار يطبقها على شعوب أبية، غير أن تاريخ الحرب الفيتنامية يظل خير شاهد على اندحاره أمام إرادة الشعوب التي لا تقهر، لكنه رغم ذلك الاندحار الشنيع لم يتعلم من أخطائه التاريخية، فراح يستحضر في شتى مواقفه عقلية الكوبوي، فيعامل بها الآخر في فلسطين وأفغانستان وغيرهما كثير، واليوم في العراق!

إن ذاكرة التاريخ لا تزال موشومة بآثار الندوب والجراحات التي خلفها الكوبوي في الوجدان الإنساني المشترك، حيث تحكي الحوادث خبث السلوك الحربي الأمريكي، الذي يعيث فسادا في الأرض، غير مكترث ببريء أو ضعيف أو جائع أو مسالم، ولا يضع أمام ناظريه سوى تحقيق تلك الأهداف المادية، التي رسم خطته لأجل نيلها أو إقرارها، وهو في هذا يخادع شعوب العالم، بالتخفي خلف شتى الشعارات السياسية والدعائية، كتحرير الشعوب المستعبدة من قبل أنظمتها المستبدة، ومساعدة الدول المتضررة من قهر الطبيعة وقسوتها، ومساندة الأنظمة التي تواجه المد (الإرهابي) الإسلامي

وهلم جرا، غير أن هذه الشعارات أو المفاهيم الدعائية تنفي نفسها بنفسها، أو تنقلب على رافعها، كما ينقلب السحر على الساحر، حيث تكتشف الشعوب المستعبدة أن لحكومات الكوبوي باعا في الوضعية المزرية التي آلت إليها، لأنها تكالبت مع أنظمة دولها – التي لم تخترها ولم تصوت عليها– على لجم أفواهها، وإجهاض المشروع الديمقراطي الذي كانت تحبل به العديد من دول العالم الثالث، والسكوت على الخرق الهائل الذي يمس حقوق الإنسان، مادام في ذلك حماية للأهداف الاستراتيجية التي تتمتع بها الولايات المتحدة الأمريكية داخل ذلك الجزء من العالم، أضف إلى ذلك أن هذه الشعوب بدأت تتيقن من أنه بجرة قلم يخطها الكوبوي أو ببنت شفة ينبسها أو بإشارة يلوح بها، تتخذ الكثير من المعادلات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تسود العالم منحى مغايرا، يقلب التاريخ المعاصر رأسا على عقب، منحى يوجه الإنسان نحو السلم والتشارك والحوار والتعاون واقتسام الثروات وما شاكل ذلك. لكن الكوبوي لا يريد ذلك، لأنه مجبول على الشر الذي توارثه على أجداده الأوروبيين، فصار عنصرا ثابتا في تركيبة شخصيته الأمريكية الحديثة، لذلك نراه يختلق الأسباب لكسر شوكة أي حركة أو دولة تتحدى نواياه الأيديولوجية.

إن جسد التاريخ كما ذاكرته، ما فتئ يعاني من أورام شتى سببها عنف الكوبوي وتدخله اللامشروع في شؤون أمم وحركات متنوعة، إذا ما اقتصرنا على مرحلة ما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، يمكن أن نحصي العشرات من الأحداث الميدانية، التي كان له يد طولى في نشوئها ونشوبها، وهو في فعله الشنيع هذا، يستخدم أساليب وآليات مبنية على مخادعة الآخرين واستجلاب رأيهم ليماشي توجهه الأيديولوجي والدوغمائي، وبعد ذلك ينطلق في تنفيذ جرائمه وحماقاته التي لا حدود لها، ومما يسترعي النظر أن الكوبوي يمتطي صهوة

المستحيل قصد تبرير شروره الخبيثة التي يلقيها على الآخرين، وفي هذا الشأن تجدر الإشارة إلى عملية (غابات الشمال)، التي كانت قد خططتها قيادة أركان الجيش الأمريكي؛ تشير بعض المصادر إلى أن تلك العملية التي كان قد خُطط للقيام بها سنة 1962، هي عبارة عن ممارسات إرهابية يقوم بها أمريكيون ضد المصالح الأمريكية، فتنسب لجهات كوبية قصد استقطاب وحشد الرأي العام الأمريكي، وجعله ينساق لتدعيم التدخل الأمريكي في كوبا، لكن في آخر المطاف رفض الرئيس الأمريكي جون كنيدي تنفيذ مثل هذه العمليات الإرهابية. الأسلوب نفسه تنتهجه الحكومات الأمريكية في تبرير اعتداءاتها على الآخرين، حيث تختلق مختلف الأكاذيب والخدع قصد إلصاق التهم بالخصم، وتأليب حلفائها وعملائها عليه، وهذا ما فعلته قبل بدء أغلب المواجهات التي زاولتها عبر عقود القرن السابق، مع الفيتنام وكوريا وكوبا والصومال وليبيا وفلسطين والعراق وغيرهم كثير. ولعل ما فعله الكوبوي بالفيتنام في الماضي، وما يفعله بالعراق في الحاضر، خير عاكس للعقلية الأمريكية المتسلطة التي استحضرت أسلوب الكوبوي مع الهنود الحمر في قهر وإبادة كل من الشعب الفيتنامي والعراقي.

ثم إن الإعلام المعاصر ساهم بشكل كبير في نقل خصائص الشخصية، التي يتحلى بها الإنسان الأمريكي سواء النفسية أو الشكلية، حيث الشكل الذي يظهر به الكوبوي على مسرح الأحداث العالمية، وهو شكل حافل برائحة الكبر والتبختر والعجرفة، يعكس بجلاء تام حقيقة الشخصية التي يبطنها، وهي شخصية مائلة إلى النرجسية وحب الذات والتعالي على الآخر، وهذا ما يبرز من خلال سلوكات الشخصيات الأمريكية الرفيعة المستوى والتأثير، التي نراها عبر شاشات التلفزة و الإنترنت، ابتداء من أسلوب كلامها المسكون بضمير الأنا المطلق، وصولا إلى بعض الأدوات التي تستعملها

وطريقة لباسها، التي تستحضر من حين لآخر بعض مظاهر لباس وأدوات الكوبوي التقليدية كالقبعة والسيجار مثلا، ولعل زيارة بوش المباغتة للجنود الأمريكيين بالعراق، والطريقة الاستعراضية والدعائية التي تمت بها، تحيل بصيغة أو بأخرى على سيكولوجية الإنسان الأمريكي الذي يميل دوما إلى أن يكون متميزا، ولو أنه غير متميز!

اندحار الكوبوي في الفيتنام وتورطه في العراق

إن المتمعن في ملابسات وخلفيات الحرب الأمريكية سواء على الفيتنام أو على العراق، يستخلص شبها لا مثيل له بينهما، رغم التباعد الزمكاني بين المكونات البشرية والحضارية لكلا البلدين أو الشعبين، وهذا الشبه يتجسد في النقاط الآتية:

- لقد لعبت حكومة سايغون في جنوب الفيتنام الدور الفعال في جذب المساندة الأمريكية لها، ضد حكومة هانوي الشمالية الشيوعية، ويمكن مقارنة حكومة سايغون بالمعارضة العراقية الخارجية، التي استطاعت بشتى الوسائل الديبلوماسية والإعلامية إقناع حكومة الكوبوي بخطورة صدام العسكرية والاستراتيجية، صدام الذي يشبه أو كان يشبه، بشكل أو بآخر، حكومة هانوي الشيوعية التي قادت الثورة ضد الجنوب المدعوم بالولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

- كما أن الدبلوماسية الأمريكية قامت قبل وأثناء حربها على الفيتنام، بإقناع الكثير من الجهات بالمشاركة معها في هذه الحرب، وقد تمكنت من جلب العديد من الدول كأستراليا ونيوزيلاند وتايلاند وكوريا الجنوبية والفليبين وغيرها، وهذا ذاته ما تم سواء أثناء الحرب الخليجية الثانية على العراق، أو في غضون الغزو الأخير للعراق، حيث استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تؤلب على الدولة العراقية العديد من دول العالم.

 لما احتدمت الحرب الأمريكية الفيتنامية، انفلت الأمن، فاختلط الحابل بالنابل، ورغم الإمكانات التي كان الجيش الأمريكي يتوفر عليها، ورغم الترهيب المطلق الذي زرعه في صفوف الفيتناميين، لم يفلح في كسر شوكة هؤلاء، بقدرما ألهب فتيل الحماسة لديهم، وأشعل حطب المقاومة التي رفعوا شعارها في كل حيز من وطنهم، في حين ظل الشعب الأمريكي متذمرا من هذه الحرب التي لا معنى لها، ونفس السيناريو يتكرر بحذافيره أثناء الغزو الأمريكي الأخير للعراق، إذ أصبح الكوبوي في مأزق كبير أمام المقاومة العراقية الباسلة المحتدمة، في الوقت الذي تعاني كل المدن التي يستولي عليها من انفلات أمني خطير، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فنرى بين فينة وأخرى الكثير من المواطنين والمثقفين والسياسيين وغير ذلك، الذين يعبرون عن سخطهم من هذه الحرب، التي لا يجنون منها إلا الخسران والصَّغار والبغضاء.

 وأهم ما ينبغي ثبته بالإضافة إلى النقاط السالفة الذكر، هو مخلفات هاتين الحربين اللتين أتتا على الأخضر واليابس، حيث يشير أحد التقارير حول حرب الفيتنام إلى أنه خلال ثماني سنوات من القتال، تم تسجيل حوالي مليوني قتيل في الشعب الفيتنامي، إضافة إلى ثلاثة ملايين جريح، وما يتعدى 12 مليون لاجئ. ونفس عدد القتلى أو أكثر تم تسجيله في صفوف العراقيين طوال السنوات العشر من الحصار، كما يشير إلى ذلك عالم المستقبليات المغربي د. المهدي المنجرة، في كتابة القيم (الحرب الحضارية الأولى).

بناء على الملاحظات المثبتة أعلاه، وانطلاقا من المعطيات المحفوظة في ذاكرة التاريخ، حول الحروب التي قادها الكوبوي، يبدو بجلاء مدى وحشية ولا إنسانية الآليات، التي اعتمدها في قهره للشعوب الرافضة الخنوع لأهوائه الفاسدة؛ تحكى وسائل الإعلام الأمريكية وقائع تلك الممارسات البشعة التي زاولها الجنود

الأمريكيون ضد الفيتاميين العزل، وأهم هذه الوقائع تلك التي تتعلق بإبادة الملازم الأميركي وليام كالي للمدنيين الأبرياء في قرية لاي سنة 1968، وهذا ما سيجري مرارا وتكرارا في فلسطين السليبة على مرأى وبمساندة من الإدارة الأمريكية، إلا أن ما يحدث الآن في العراق عرى بشكل واضح نوايا الأمريكيين المستكبرين، المسكونين بعقلية الكوبوي المتعطشة إلى دم المستضعفين، حيث مجازر النجف والفلوجة وبغداد وغيرها من المدن المرابطة، تظل خير شاهد على أن هذا الوافد لم يأت لتحرير بلاد الرافدين، بقدرما جاء لأبادة صوت الحق الذي تلهج به الحضارة العربية والإسلامية الشامخة.

الكوبوي صانع التراجيديا العراقية

العراق الذي منه انبعثت الشرارة الأولى لحضارة الإنسان، سواء في غابر الأزمان أو إبان الدولة الإسلامية... العراق الذي دبج الكتاب والعلماء تأليفاتهم بالحديث عن مفاخره وأمجاده ولياليه التي لا تنقضي، رغم أن زمن شهرزاد أضحى في خبر كان... العراق الذي تغنت بمفاتنه قصائد الشعراء وشدت بمحاسنه سمفونيات المغنين... العراق الذي عقدت عليه الشعوب الإسلامية والعربية آمالا عريضة، لأنه الوحيد الذي استطاع رفع التحدي في وجه الطاغوت الأمريكي والصهيوني...

العراق الذي ... ها هو يسقط في شراك الكوبوي، الذي يستبد به شر استبداد، ضاربا عرض الحائط كل المواثيق الدولية، ويسطو على خيراته النفطية والأثرية والبشرية، كما تنسج العنكبوت على غنيمتها، إلا أن للعنكبوت هدفا محدودا لا يتجاوز إسكات ألم الجوع وإطفاء حرقة الظمأ، أما قصد هيمنة الميغا-إمبريالية الأمريكية، كما يسميها د. المهدي المنجرة، فيتخطى كل المقاييس ويتعدى كل التصورات، ليتخذ أبعادا حضارية عامة تسعى إلى ضرب كل طفرة فكرية أو

صناعية يقدم عليها أي عقل لا ينخرط في دائرة التفكير الأمريكي، وهذا ما يثبته، بشكل ما، وزير الدفاع الفرنسي السابق جان بيير شوفنمان وغيره، الذي يرى أنه "كلما أراد العرب استدراك تخلفهم، ولأسباب وجيهة أن يصنعوا وحدتهم، كانوا يجدون الغرب على طريقهم لكي يمنعهم من تحقيق أهدافهم". والغزو الذي يمارس اليوم بكل شراسة ووقاحة على بلاد الرافدين، خير شاهد على حيلولة الغرب المتأمرك دون إنجاح المشروع التغييري، الذي تطمح إليه الشعوب العربية والإسلامية، فالكوبوي لم يأت إلى العراق وغيره من الدول، لاستئصال جذور الاستبداد واستبدالها ببذور الديموقراطية وحقوق الإنسان، وإنما جاء ليحمي مصالحه الاستراتيجية، عسكرية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك، فيضمن بذلك استمرارية أسطورة الكوبوي ليس عبر الشاشة التي تنقل لك الطبيعة الأمريكية بتضاريسها الوعرة وأدغالها الخطرة وحيواناتها الكاسحة، ولكن على أرض الواقع العراقي الملطخ بدماء المدنيين العزل، من أطفال رضع وشيوخ ركع ونساء بسيطات لا يعين من السياسة حتى اسمها.

ويمضي الأمريكي في لعبته الخبيثة، لا يأبه بالإنسان أو الحيوان أو الطبيعة، ولا يعير اهتماما للمعاناة الجسيمة التي يبثها في حياة الأبرياء والمستضعفين، الذين لا ذنب لهم فيما يحدث إلا أنهم ولدوا مسلمين، على غير ملة الكوبوي، لذلك فهم على الدوام مرمى المسخ الأمريكي، الذي صار يفرغ كبته الجنسي المهين في سجن أبو غريب وغيره من الأماكن المسيجة بالتعتيم والتضليل والصمت المطبق، ويترجم سلوكه العدواني المزمن في بغداد والفلوجة والنجف وغيرها من المدن المجاهدة، وتبقى الفلوجة خير شاهد على مدى دناءة الكوبوي، الذي عمد إلى تدنيس ما هو مقدس، فاكتسح بتلك المدينة أحد المساجد، واقترف فيها ما لا يجرأ على اقترافه حتى الشيطان، بل وعمد إلى التنكيل بمن كان موجودا بداخله، فكان من بين الضحايا

شيخ منهك، رأيته، بل ورآه العالم بأسره عبر عدسة الكاميرا، وهو وسط الجثث المتساقطة هنا وهناك، وعيناه تدمعان دما، وهو يحتضر بعد أن خرقت جسده الهزيل رصاصات الوغد الأمريكي الرجيم، رأيت فيه العراق برمته وهو يتداعى أمام عيون العالم.. ارتج كياني فشعرت بالحياة أمر من ماء البحر وأمر من العلقم؛ ما جدوى أن أعيش هنا في إحدى أنقى و أفخم عواصم الدنيا (أمستردام)، وأتنعم بآخر ما توصل إليه الإنسان من أكل ولباس ومواصلات وغير ذلك، ما جدوى ذلك وإخواني ينالون أذل وأبشع أنواع المعاناة والتعذيب، وحتى الموت لا يتنعمون به، ولا يموتون كباقي الناس، وإنما يموتون على طريقة الأمريكان والكوبوي، حيث يتحملون أقسى التعذيب، وبعد ذلك لا نعرف أين يلقى بجثثهم.

رغم أن الموت شيء طبيعي وحالة انتقالية ينتقل بها الإنسان من عالم إلى آخر، قدره الله علينا وبأسلوب منظم غاية في الكرامة والهيبة، فإن الإنسان شوه هذا المفهوم، حتى صار الموت يحمل دلالات القتل البشع لكل ما هو إنساني وطبيعي بل وما هو حميمي في الإنسان، الذي يصبح عدائيا رغم إنسانيته. إن صورة الشيخ الذي بكى أمام الكاميرا دما، هي من جهة صورة مختصرة للعراق الذي ينزف دما، وإن شئت فاعتبرها كذلك صورة مصغرة للعالم العربي و الإسلامي الذي تكالبت على قصعته الأمم، ودارت بدياره الدوائر، وعششت بحماه الويلات... ومن جهة أخرى صورة واضحة لشخصية وسلوك الكوبوي، الذي جاء للعراق قصد استكمال أمجاده، التي بدأها أجداده الأوروبيون، لكن غدا لناظره قريب، حيث سيجني الكوبوي ثمار البذور التي زرعها، ومن يزرع الريح يحصد العاصفة!

ها هو الكوبوي إذن، يجثم على بلاد الرافدين، ليمتص دم شعبها البريء، ويمتص نفط أرضها المعطاء، بالموت نفسه الذي أباد به الهنود الحمر، يبيد به العراقيين، وبالجشع نفسه الذي استولى به على

أراضي الهنود الحمر، يستولي على تراب العراق، ذات السيناريو يتكرر، ليعيد التاريخ نفسه بقوة، كأنك تشاهد فيلما هوليوديا، كل ما فيه جديد إلا البطل، المكان هو العراق، الزمان هو بداية الألفية الثالثة، الخصم الذي يواجهه البطل هو الشعب العراقي، الأسلحة هي الطائرات والصواريخ والدبابات... لا المسدس أو البندقية، المشاهدون ليسوا معدودين يقبعون في دور السينما، وإنما هم كثر يتابعون الحدث في كل حيز وآن. كل شيء ،إذن، جديد إلا الكوبوي، الذي أبى التنازل عن شخصيته النرجسية، رغم أنه يعتبر نفسه صانعا للحداثة والموضة والتغيير والعولمة، إلا أنه في أعماقه يظل مسكونا بهاجس التفوق والسمو والتفرد، لذلك نراه يحاول ترجمة ذلك إلى كل العالم وعبر كل الوسائل والأدوات من سياسة وإعلام وعسكر وغير ذلك.

موقع العالم العربي والإسلامي من مجتمع المعرفة

في حقيقة الأمر، يعتبر مصطلح (مجتمع المعرفة) من المصطلحات الجديدة، التي ظهرت في غضون التحولات العلمية والفكرية والتكنولوجية والسياسية، التي بدأ يشهدها راهن الإنسانية انطلاقا من العشرية الأخيرة من القرن المنصرم، كمصطلحات العولمة والسوق الحرة والنظام العالمي الجديد والثورة الرقمية وحوار أو صدام الثقافات وغيرها، وعلى المستوى المفهومي يتخذ هذا المصطلح اتجاهين:

أولهما عادي، يطلق على جماعة من الناس توفق بينهم اهتمامات فكرية أو أدبية أو علمية أو سياسية موحدة، فيتكتلون في مجتمعات معرفية مصغرة، يجمعون فيها ما توصلوا إليه من معارف ومعلومات وإنجازات وغير ذلك.

أما **الاتجاه الثاني**، فهو أوسع وأعمق، حيث يشكل محورا أساسيا لدى العديد من الطروح السياسية والدراسات المستقبلية المتخصصة. وفي هذا الصدد يعد عالم السمتقبليات المغربي د. المهدي المنجرة، أهم مفكر ينحدر من العالم الثالث، أولى أهمية قصوى لمصطلح (مجتمع المعرفة)، حيث يرى أن العالم دخل منذ مدة ما يطلق عليه (مجتمع المعرفة)، والمعرفة كما يوضحها، هي مجموع المعلومات، والإشكال القائم هو كيفية الوصول إلى سر هذه المعلومات وسر هذه المعرفة. ثم إن المعرفة في العصر الحديث، الذي هو العصر الرقمي، أصبحت أكثر استجابة لمقتضيات التغيرات الصناعية والاقتصادية والسياسية والثقافية الجديدة، مما أكسبها خصائص مغايرة نوعا ما، لما كانت عليه الثقافة التقليدية، إن السمة الأساسية للمجتمع المعرفي "تتمثل في أن الحدود التي كانت، في الماضي، قائمة بين ميادين المعرفة المختلفة قد انتهت أو شارفت على النهاية". وهكذا يتقرر أن ابتكار المعرفة أصبح يشكل ثروة حقيقية، تفوق قيمتها قيمة أي ثروة، كيفما

كان مصدرها ونوعها، فـــ "حضارة المستقبل تعتمد بشكل أساس على الإنسان وليس على المزرعة ولا على المصنع، إنها حضارة المعرفة، والبحث والمعلومات والتقنيات".[1]

وعندما نربط مفهوم (مجتمع المعرفة) بالدول النامية عامة، والعربية خاصة، ومدى تحققه أو تحقق جانب منه في واقع تلك الدول، يمكن أن نستنبط جملة من الملاحظات، التي في ضوئها يمكن استيعاب موقع العالم العربي من المجتمع المعرفي؛ هل يتموقع ضمن هذا المجتمع الحديث الذي لا يؤمن إلا بقيم المعرفة والأفكار والابتكارات، أم أنه ما يزال يوجد على الهامش، لم يتمكن بعد من ولوج هذا المجتمع الجديد، ما دام أنه لم يتأهل بعد لامتلاك المفاتيح التي بها تشرع له أبواب ذلك العالم، وهذه الملاحظات هي كالآتي:

- ✓ ما يدركه المتتبع لحركة المجتمعات العربية والإسلامية الفكرية والعلمية والثقافية، أنها بدأت في الآونة الأخيرة تعج بالمؤسسات الثقافية والأكاديمية الداعية إلى تأهيل الإنسان العربي، حتى يواكب التقلبات الفكرية والتكنولوجية العظيمة التي تشهدها الكرة الأرضية، وقد ساهمت الكثير من هذه المؤسسات في صياغة بحوث ودراسات وتقارير في هذا الشأن، وهي في الحقيقة، تتضمن أفكارا ورؤى واستراتيجيات قيمة، ومع ذلك تظل دار لقمان على حالها الأول! ما دام أن تأثير تلك البحوث والدراسات والتقارير لم يمس بعد البنية التحتية، ليس لأنها ناقصة أو مختلة، وإنما لأنها لا تترجم على أرض الواقع إلا بكيفيات نسبية ومحدودة.
- ✓ لذلك فإنه يمكن الحديث عن نشأة مجتمع المعرفة في العالم العربي والإسلامي، لكن في نطاق خاص وضيق يشمل النخبة

---

[1] عولمة العولمة من أجل التنوع الحضاري، د. المهدي المنجرة، منشورات الزمن، سبتمبر 2000، بتصرف من ص 36 إلى 40

السياسية والثقافية، وهو ما يطلق عليه (الأنتلجينسيا)، كما يشمل الباحثين والمثقفين ذوي التخصصات العلمية والفكرية والأكاديمية المشتركة، وهذا يعني أن مجتمع المعرفة لم يتحقق في العالم العربي إلا بمفهومه العادي، وليس بمفهومه الموسع، الذي تصبح فيه أغلب شرائح المجتمع مشاركة في هذا المجتمع، بتواصلها وتفاعلها وتثاقفها وإسهامها.

- ✓ على هذا الأساس، حتى نكون أكثر موضوعيين، يبدو أن تحقق مجتمع المعرفة على صعيد البنية التحتية في العالم العربي والإسلامي غير وارد، ليس لأنه من المستحيلات، وإنما لأن أسباب الانتقال إلى ذلك النمط من المجتمع غير متوفرة، وتشير مختلف التقارير الدولية والإقليمية إلى مدى شساعة الفجوة المعرفية، أولا بين دول الشمال ودول الجنوب، وثانيا بين المتعلمين والمثقفين في الجنوب وغير المتعلمين والأميين، ثم إن مجتمع المعرفة لا يعني محو الأمية وامتلاك الحاسوب وما إلى ذلك من الجوانب الشكلية، وإنما التمكن من أسباب المعرفة الحقيقية، من لغات ومفاهيم وتقنيات وآليات، تؤهل الإنسان لأن ينتج المعرفة ويبتكرها، لا أن يجمعها ويحفظها عن ظهر قلب!
- ✓ ثم إن ما يصاغ من تقارير وبيانات، وما ينظم من مؤتمرات وندوات، تنظر لمجتمع معرفي عربي، لا يهم إلا النخبة، سياسية كانت أو ثقافية، أما المواطن العادي، فهو مغيب تماما، ليس لأنه لم يستفت في ذلك، أو لم يشارك، أو ما إلى ذلك، وإنما لأنه لا يفقه أصلا، ولو ذرة، مما تقوله أو تدعو إليه النخب، فهو منشغل بهمومه المعيشية والاقتصادية، ولا يحتل ما هو معرفي أي حيز في حياته اليومية، فالإحصائيات الرسمية تشير إلى أن الأمية تصل في الكثير من الدول العربية إلى أكثر من 60%، أما الدول التي تصل فيها إلى

20%، فهذا لا يعني أن الغالبية العظمى من شعوبها، مؤهلة لولوج مجتمع المعرفة، لأن نوعية تلك المعرفة أو مستواها يظل هزيلا، ما دام أنه يقتصر على محاربة الأمية اللغوية، ويحرم بعض الشرائح من متابعة تمدرسها، كسكان البوادي والنساء وغير ذلك.

- ✓ من هذا المنطلق، إن الحديث عن مجتمع معرفي شامل، تشارك فيه سائر طبقات المجتمع، لا يتأتى إلا بالتوعية الحقيقية للإنسان العربي والمسلم، التى لا تتحقق إلا عندما ينال ذلك المجتمع حظه الكافي واللازم من التنمية، ومفهوم التنمية هو بالدرجة الأولى مفهوم اقتصادي، "استُخدم للدلالة على عملية إحداث مجموعة من التغيرات الجذرية في مجتمع معين؛ بهدف إكساب ذلك المجتمع القدرة على التطور الذاتي المستمر بمعدل يضمن التحسن المتزايد في نوعية الحياة لكل أفراده، بمعنى زيادة قدرة المجتمع على الاستجابة للحاجات الأساسية والحاجات المتزايدة لأعضائه".[1] وسوف يتسع هذا المفهوم لاحقا، ليشمل مختلف المجالات والحقول، فتنشأ مفاهيم جديدة مثل: التنمية السياسية، التنمية الاجتماعية، التنمية الثقافية، وغير ذلك. هكذا فإن هذا الارتباط التاريخي الوثيق لنشأة مفهوم التنمية بما هو اقتصادي، يعني أن ثمة نوعا من التراتبية في تنفيذه على أرض الواقع، فلا يمكن الحديث عن التنمية الثقافية في غياب التنمية الاقتصادية أو السياسية، لذلك فإن التنمية ثقافيا ولغويا ومعرفيا، لن تتأتى بالكامل إلا بتنمية الإنسان معيشيا واقتصاديا واجتماعيا وتربويا ونحو ذلك. مما سوف يمكنه لا محالة من ولوج مجتمع المعرفة.

---

[1] مفهوم التنمية، د.نصر عارف، إسلام أون لاين، رابط:
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mafaheem-2.asp

- ✓ وحتى يكتمل المشروع التنموي الشمولي المؤدي إلى مجتمع المعرفة، كما هو متداول في الغرب واليابان وبعض دول جنوب شرق آسيا وغيرها، يتحتم، من جهة أولى، تعميم الديمقراطية وثقافة المساواة والحريات العامة واقتسام الثروات وغير ذلك، ومن جهة أخرى إلغاء العقلية التقليدية، التي كانت مجبولة على سيادة الشعوب بمنطق العصا الغليظة، وإحكام القبضة عليها، سعيا إلى تدجينها وتكميم أفواهها، لأن مجتمع المعرفة يستكره مثل هذه القيم والطرائق، التي تقف سدا منيعا في وجه العطاء والتجدد وخلق المعارف.

خلاصة القول، إن تفسيرنا لموقع العالم العربي والإسلامي من مجتمع المعرفة، ينبغي أن ينطلق من واقع ذلك العالم، بكل مكوناته البشرية، وما يتضمنه من معطيات وإمكانيات ومؤهلات، لا من واقع بعض النخب السياسية والثقافية والأكاديمية، التي لا تمثل إلا حوالي 5% أو أقل من ذلك الواقع، وهذا لا يعني أن فهمنا ينحو منحى تشاؤميا أو تشكيكيا، في قدرة المجتمعات العربية والإسلامية على النهوض وولوج مجتمع المعرفة، وإنما يتحرى أكبر قدر من الموضوعية، التي على أساسها يتحتم على الباحثين والمنظرين والمحللين صياغة موقع العالم العربي والإسلامي من مجتمع المعرفة، وإلا فإن ما نضعه من توقعات واستراتيجيات لا تعدو أن تكون إلا حبرا على ورق!

بين الكرامة وحقوق الإنسان

يقول سبحانه وتعالى في الآية السبعين من سورة الإسراء: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا".

هذه الكرامة التي منحها الله عز وجل الإنسان واختصه بها، هي في حد ذاتها حماية إلهية له، تنطوي على احترام حريته وعقله وفكره وإرادته، أو ما يطلق عليه في علم مقاصد الشريعة الإسلامية الكليات الخمس، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، إنها في الحقيقة أرفع ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في نظمه الاجتماعية وعلاقاته العامة، أو بصيغة أخرى، إنها البعد النهائي لمصطلح (حقوق الإنسان)، أو أنها الحصيلة الشمولية لمفهوم حقوق الإنسان، هذا المصطلح الحديث العهد، المعاصر الانتشار، لا يعثر له على أي أثر في تأليفات القدامى وأسفارهم، اللهم إلا على مستوى الدلالة والفهم، من هذا المنطلق، يمكن الاستفهام حول ماهية اللفظة التي كانت تشغل حيز هذا المصطلح المحدث قديما، سواء أعند العلماء والفقهاء، أم لدى الفلاسفة والأدباء، أم عند غيرهم.

ارتكازا على جانب من التراث العربي الإسلامي، وما توصل إليه من خلاصات فكرية، وإنجازات معرفية، يمكن أن يعتبر الإنسان، استنتاجا، أن لفظة الكرامة هي الجديرة بأن تكون المعادل الموضوعي لمفاهيم حقوق الإنسان المعاصرة، والدليل على ذلك جلي، إن في الشعر الجاهلي (ومن لم يكرم نفسه لم يكرم)، أو في القرآن الكريم (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، أو في غيرهما.

يؤكد صاحب (الحرب الحضارية الأولى مستقبل الماضي وماضي المستقبل)، د. المهدي المنجرة "أن مباديء الإسلام قد جاءت بهذه الحقوق قبل غيرها بقرون، إن مفهوم الحرية وكرامة الإنسان وحقوقه وحقوق المرأة والحق في الإبداع والابتكار هي نقطة الانطلاق الحقيقية لمفاهيم الإسلام، فليس هناك شيء أخذناه من الخارج، فقد سادت هذه المفاهيم في عهود الإسلام الزاهرة. لكن تدهور المجتمع الإسلامي وطغيان روح الاستبداد في العالم الإسلامي لعدة قرون جعل كثيرون ينسون هذه المباديء".

وما يستفاد من هذه الرؤية المتوازنة، يتحدد من خلال العناصر الثلاثة الآتية:

1- المباديء التي تنص عليها وتدعو إليها المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، قد نص عليها الدين الإسلامي الحنيف، ودعا إليها منذ حوالي خمسة عشر قرنا.
2- إذا كنا في العصر الحديث نجد أن قضية حقوق الإنسان مرتبطة ببعض المؤسسات والجمعيات المختصة والمنظمات غير الحكومية، فإننا في الإسلام نرى أن قضية حقوق الإنسان هي قضية الجميع؛ حكاما وشعوبا.
3- إن اعتقاد أن قضية حقوق الإنسان قضية ابتكرها الغرب ونظر لها ودافع عنها، لا يعدو أن تكون إلا صناعة إعلامية غربية، وقد انساق وراءها الكثير من المسلمين، إما بحكم المشاكل الكبرى التي شهدها العالم الإسلامي (الاستبداد، الاستعمار، الانقلابات، الحروب الأهلية...)، وإما بسبب الجهل بتاريخ الأمة الإسلامية وتراثها وفكرها.

خلاصة القول، إن مصطلح الكرامة الذي نشأ مفهومه بين أحضان المعرفة الإسلامية، مرادف لمصطلح حقوق الإنسان،

الذي تبناه الغرب ونظر له بأسلوبه العلماني المادي، وهو ينكر "أن الله، كما يقول د. المهدي المنجرة، عندما خلق الإنسان خلق معه كرامة، وهي من أعز الأشياء عند الله، بغض النظر عن لون الإنسان ودينه وموطنه".

منطق الإبادة أو الخروج على الفطرة

موازنة بين الهولوكست اليهودي وإبادة المسلمين

الخروج على الفطرة الأصلية

من سنن الله تعالى أنه جعل الخلق ينبني على ثنائيات مختلفة ومتضادة، تهب الوجود سر الحياة والاستمرار والديمومة، وكأنما عن الاختلاف يتولد الائتلاف، ومن التضاد تنبثق لحمة التناسق، دون أن نشعر في واقع حياتنا بالفوارق الطبيعية البارزة، التي تنشأ بين تلك المتضادات، في أعيننا وأذهاننا، فنتأقلم، بلا وعي منا، مع هذا الوجود الذي يتركب، أصلا، من أزواج مختلفة، وأضداد متباينة، وكأن الزوج أو الضد لم يوجد إلا ليكمل ضده أو زوجه الآخر، ولو أنه يختلف عنه اختلافا كبيرا.

إذا كانت سنة الله تعالى تسري بشكل عفوي في الوجود، وهي منزهة عن التكلف أو الاصطناع، فإن تجلي هذه السنة في الخلق، من خلال سلوكات الإنسان، هو الذي يفرغها من معانيها الحقيقية، ويبعدها عن حقائقها الأصلية، وهو يمارس بذلك نوعا من التمرد عن القانون الإلهي، والانحراف عن الأصل الفطري، وهكذا ينشأ التضاد السلبي على أنقاض التضاد الإيجابي في الطبيعة والوجود والحياة، وهو تضاد محكوم بالنفس البشرية المنزاحة نحو المحظور، دون مراعاة لتعاليم السماء، وأعراف الناس، مما يترتب عن ذلك منزلقات خطيرة في عالم الإنسان، ترجح كفة الشر عن كفة الخير، وهي مأخوذة بحب الذات وكره الغير، إلى درجة أن أغلب أحداث التاريخ الإنساني ناجمة عن هذا التنكر الصريح للفطرة الأولى، التي يبدو فيها الإنسان بريئا خاضعا خضوعا تاما لما يمليه عليه اعتقاده، وهو تنكر سببه الإغراق الطائش في هوى النفس الأمارة بالسوء، وهي تتوكأ على عكاز الشيطان، وبمجرد ما يسلب هذا العكاز تسقط سقوطا مشينا لا مخرج منه!

وهذا السقوط المشين هو ما آلت إليه البشرية، وهي تزعم أنه تقدم وتحرر ونماء، لكنه على المستوى العميق تقدم مادي مبني على تخلف أخلاقي، وتحرر من الفطرة النقية، ونماء محاصر بتحديات أكبر مما حققته الإنسانية من تنمية، حتى أنك لو أنفقت كل ما توصل إليه الإنسان من مكتسبات فكرية ومادية واقتصادية وتكنولوجية... في ما يتخبط فيه العالم من مخاطر تهدد الطبيعة والإنسان، فإنك لن تتمكن من حل ولو جزء بسيط منها، فأي تقدم هذا، وأي تحرر، وأي نماء!

إن الإنسان الذي وضع في مذكرة مشاريعه الكبرى فكرة التحكم في الطبيعة وتسخيرها، صار محكوما بالطبيعة، سواء من خلال مواردها المتنوعة التي دون توفرها، قد تصبح حياة البشر مهددة بالانقضاء والانقراض، لذلك نرى أن خوف الإنسان من نفاد هذه الموارد واستنزافها، يزيد يوما بعد يوم، مما يصعد لديه شعور السطو على منابع موارد الطبيعة الأساسية، التي هي ضرورية للمجتمع الإنساني، أو من خلال مناخاتها المتقلبة التي تجعل حياة الإنسان محكومة بمناخ البيئة التي يعيش فيها، رغم التقدم الهائل الذي شهدته البشرية عبر مراحل التاريخ الحديث والمعاصر، مما يثبت أنه مهما حاول الإنسان التحكم في الطبيعة ومواردها وأحوالها، فإنه يكتشف مدى نسبية المكتسبات والابتكارات العلمية والصناعية والتكنولوجية التي يتم التوصل إليها.

ومع ذلك، نلمح أن الإنسان مسكون بنزوة التحدي والكبرياء وادعاء القوة، لا يعترف، إلا نادرا، أو إلا لدى بعض المؤمنين، بضعفه الجلي أمام قوى الطبيعة ومخاطرها بصفة خاصة، وفي سائر أطوار حياته بصفة عامة، **(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)** الروم آية 54، ولو أن الخالق تبارك وتعالى سخر له هذه الطبيعة، كما ورد في بعض آي القرآن الكريم، **(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي**

الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَار/وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) إبراهيم آية 33/32، **(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** النحل آية 12، **(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** النحل 14، وغير ذلك من الآيات القرآنية المعبرة عن تسخير الله تعالى مصادر الطبيعة ونعمها للإنسان، لكن لاستخدامها استخداما سليما خلوا من التعدي والتجاوز، والاستنفاع بها استنفاعا معتدلا خلوا من التبذير والإسراف، وإلا انقلبت هذه الطبيعة عليه، كما ينقلب السحر على صاحبه، خصوصا إذا ما استخدمها استخداما منحرفا، محفوفا بالضرر والاستنزاف والاستهلاك العشوائي، الذي يهدر موارد الطبيعة التي لا تتجدد أو أنها تتجدد بعد أمد طويل، مما يخل بالتوازن الطبيعي، فتترتب عن ذلك شتى المعضلات المستعصية والكوارث القاتلة والظواهر المبهمة والأوباء الغريبة، من مثل ثقب الأوزون، وارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، والبراكين والزلازل وغير ذلك، وكأن الطبيعة تعبر بهذه الظواهر المشاهدة عن تألمها العميق وغضبها الدفين مما يلحق بها من إهدار وإهلاك.

بين الهولوكست اليهودي وإبادة المسلمين

ومادام الإنسان يعتبر محور قصة الحياة التي تجري فصولها على خشبة الطبيعة، فإننا ارتأينا أن نتطرق في هذه الورقة إلى الإبادة التي تعرض إليها المسلمون عبر مراحل التاريخ، ونحن نستحضر أحداث المحرقات الألمانية التي تم أثناءها التنكيل باليهود، وهي معروفة بالهولوكست (**Holocausts**)، فعرف الصهاينة كيف يوظفون عبر التاريخ المعاصر تلك الأحداث لصالحهم، فينجحون في استقطاب العطف العالمي، بمختلف وسائل السياسة والدعاية، التي جعلت مما

أصابهم على يد النازية في أواخر النصف الأول من القرن الماضي، يرقى إلى أن يكون أسطورة يهودية جديدة، تنضاف إلى أساطيرهم القديمة!

وهذا لا يعني أننا نشكك فيما تعرض إليه اليهود من تحريق وتقتيل ومحق من قبل هتلر، وإنما نشكك في جملة من المعلومات والأرقام التي دعموا بها هذا الحدث التاريخي، وذلك استنادا إلى معطيات وتفسيرات أكثر من مؤرخ ومفكر غربي، ففيما يتعلق بالأعداد التي تم قتلها وتحريقها، التي يدعي اليهود أنها تقدر بحوالي ستة ملايين، وهو رقم جد مبالغ فيه، خصوصا وأن العدد الإجمالي لليهود الذين كانوا آنذاك يستوطنون ألمانيا والدول الأوروبية التي احتلتها، كان يربو بقليل على ثلاثة ملايين، وهذا المعطى ورد في الكتاب اليهودي السنوي:(5702)؛ فمن أين جاء الرقم ستة؟! ثم إن هناك أكثر من مصدر غربي يشير إلى أن عدد اليهود الذين تمت تصفيتهم في المحرقات الألمانية يحدد في المليون وربع مليون قتيل، كما جاء في كتاب (القضاء على يهود أوروبا) لكاتبه رؤول هلبرج، أو في أقل من المليون كما ذكر معهد التاريخ بباريس.

ثم إن هذا العدد من الضحايا المتراوح بين ما يقل عن المليون أو يزيد عليه، لا يشكل إلا نسبة جد ضئيلة (5%) بالنظر إلى ضخامة ضحايا الحرب العالمية، الذين يقدرون بالخمسين مليون قتيل، كما أن ثمة نسبة لا يستهان بها من ضحايا اليهود، نتيجة المجاعة التي عمت، في العشرية الثالثة من القرن الماضي أغلب بقاع العالم، غير أن اليهود استطاعوا، بخداعهم المعروف، ودهائهم الخبيث، أن يوظفوا تلك الأحداث لصالح أغراضهم السياسية والأيديولوجية، فيتمكنوا بعد مدة وجيزة من تاريخ تلك المحرقات من أن ينالوا وطنا، بمباركة من الغرب الاستعماري، ومعاضدة من مختلف الدول الغربية، كمكافأة سمينة على ما ألحقه بهم هتلر من محق وإبادة!

كذلك لم نستحضر هذه اللمحات التاريخية المتداولة في أدبيات التاريخ اليهودي المعاصر، إلا لنؤكد أن اليهود عرفوا كيف يضخمون حدثا تاريخيا عاديا، نقول إنه عادي، لأن ذلك كان متزامنا مع استعمار مئات الشعوب، ومنها الشعوب العربية والإسلامية، التي كانت تقتل بالملايين، فوظفوه بأسلوب ذكي، في حين سكتت الشعوب الأخرى وهي راضية بالاستقلال النسبي والمشروط!
وفيما يرتبط بالحالة العربية والإسلامية، جدير بنا أن نذكر أن شعوبنا تعرضت لأضعاف مضاعفة مما أصاب اليهود في ألمانيا، وثمة معطيات تاريخية تقدر بالأرقام ضحايا الإبادات و(الهولوكسات) التي تعرض إليها المسلمون عبر مختلف مراحل التاريخ، لكن لم يعرفوا كيف يوظفونها، ليس بالتسول لدى المحافل الدولية والاستعطاف وطلب الشفقة، وإنما بوضع الغرب المتغطرس أمام أخطائه الرهيبة التي لا تغتفر، والتي يتحتم عليه أن يكفر عنها، بالتعويض المادي والمعنوي، أو بالقوة والعقاب.

وهذه بعض التقديرات المنشورة في عدد من المصادر الرقمية، حول ضحايا المسلمين أثناء مختلف الأحداث التاريخية:

- إبادة أكثر من نصف مليون مسلم على يد المسيحيين أثناء مختلف الحملات الصليبية، التي امتدت بين القرن 11 الميلادي والقرن 15.
- مقتل أكثر من مليون مسلم على يد المغول، الذين سيطروا على بغداد سنة 656هـ، ونكلوا بالمسلمين شر تنكيل، حتى تلونت مياه دجلة والفرات بلون الدم، كما يذكر المؤرخون.
- مئات الآلاف من المسلمين منهم من تمت تصفيته، ومنهم من أجبر على تغيير ديانته، ومنهم من تم استصدار ممتلكاته ونفيه، وذلك أثناء سقوط الأندلس، بسقوط غرناطة سنة 897 هـ.

- قتل واستبعاد وتشريد أكثر من مليون مسلم أثناء قيام التمرد والثورة ضد الدولة العثمانية، التي كانت نهايتها سنة 1918م.
- إبادة وتشريد أكثر من ثلاثة ملايين مسلم أثناء وبعد الاستعمار الأوروبي للعالم العربي والإسلامي، عقب الحربين العالمية الأولى والثانية.
- قتل وتشريد أكثر من خمسة ملايين مسلم من قبل الحملات التي قام بها القيصر الروسي على مختلف المناطق الإسلامية المجاورة لروسيا.
- التنكيل بأكثر من مليون مسلم بسبب المد الاشتركي الذي مارسه السوفيات على ما كان يعرف سابقا بالجمهوريات الروسية.
- إبادة أكثر من المليون ونصف مليون مسلم في الصين والفيتنام وكمبوديا ومختلف بقاع الشرق الأقصى، وذلك منذ الحرب العالمية الثانية.
- قتل وتشريد أكثر من نصف مليون مسلم في بورما منذ الحرب العالمية الثانية.
- إبادة أكثر من نصف مليون مسلم في الهند وكاشمير، منذ سنة 1947م.
- إبادة أكثر من نصف مليون مسلم في البوسنة والهرسك من قبل الصرب والكروات، وذلك في بداية العشرية التاسعة من القرن المنصرم.
- قتل أكثر من مائة ألف مسلم في كوسوفو وألبانيا، خلال منتصف العشرية التاسعة من القرن الماضي.
- إبادة وتشريد ونفي أكثر من خمسة ملايين فلسطيني، من قبل الصهاينة، وذلك منذ احتلالهم لفلسطين سنة 1948م.
- التنكيل بأكثر من خمسة ملايين مسلم أثناء الغزو الروسي لأفغانستان.

- مقتل أكثر من مليون طفل عراقي أثناء العشرية التاسعة من القرن الماضي، من جراء الحصار الذي مارسته أمريكا والأمم المتحدة على العراق.
- بالإضافة إلى تصفية عشرات الآلاف من المعتقلين في سجون الدول العربية والإسلامية، المدعمة من الغرب، ومقتل آلاف العراقيين المدنيين أثناء حرب الخليج الأولى والثانية على العراق.

بناء على هذه المعطيات التقريبية التي تقدر عدد ضحايا المسلمين، الذين تعرضوا إلى شتى أصناف التقتيل والتنكيل والتصفية والنفي والتشريد والاستبعاد وغير ذلك، يتبين مدى ضراوة الإبادة التي مورست على المسلمين عبر التاريخ، من مختلف الجهات الأجنبية، سواء بهاجس التوسع السياسي الاستراتيجي، أو الطمع في ثروات العالم الإسلامي، أو الصراع الديني الذي حاولت من خلاله الحركة الصليبية عرقلة الامتداد الإسلامي، وهذا معروف ومدون لدى الغرب، الذي لم يفكر بتاتا في إنصاف أهل الإسلام، ولو بالكلمة الصادقة في حق هذا الدين العظيم، أو الاعتراف الجميل بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية، لكن كيف له أن يصنع ذلك، مادام يعتبر طرفا مهما في معادلة تلك الإبادة التي مست المسلمين.

ثم إن الهولوكست الذي مارسه هتلر على الشعب اليهودي، فكانت ضحيته المليون قتيل، ليس إلا قطرة من يم الإبادات التي تعرض إليها المسلمون، غير أن اليهود تمكنوا من أن يستغلوا ذلك، استغلالا إعلاميا وسياسيا وأيديولوجيا وثقافيا، وفي بضعة عقود تأتى لهم ما كانوا يفتقدونه قبل حدث المحرقة، من وطن وعطف دولي وتعويضات مادية خيالية وغير ذلك، في حين زاد مفعول إبادة المسلمين، التي تم شرعنتها في المحافل الدولية، وبمباركة من بعض المحسوبين على الإسلام، فصار كل من يرفض الغرب يباد باسم

الحرب على الإرهاب، وكل من يدافع عن وطنه يمحق باسم الحرب على الإرهاب، وهكذا دواليك.

عود على بدء، إن سعي الإنسان إلى إبادة أخيه الإنسان قصد الانفراد وحده بسلطة العالم، يندرج في إطار الانحراف عن الفطرة الأصلية التي خلق عليها، وهكذا ينشأ التضاد السلبي على أنقاض التضاد الإيجابي في الطبيعة والوجود والحياة، وهو تضاد محكوم، كما سبقت الإشارة، بأهواء النفس ورغبتها في التملك والسطو والاستحواذ، مما سبب شتى الويلات للإنسانية والطبيعة، وهي ويلات تظل مستمرة رغم التقدم الباهر الذي يحققه الإنسان، بل وتشتد كلما اشتد تطور الإنسان، وكأن الله تعالى يُعجز الإنسان بهذه الإشكالات والتحديات التي يبدو أمامها جهولا ويائسا وحقيرا، رغم ضخامة المشاريع الصناعية والتكنولوجية والعلمية التي تمكن من تحقيقها، لأنه اختار أن ينحرف عن الطريق المستقيم مندفعا خلف هوى النفس وحب السلطة والانقياد للشيطان! وبمجرد ما يعود الإنسان إلى رشده، ويؤوب إلى فطرته الأصلية، تنكشف الظلمة، وتتبدد العتمة، فلا نسمع عن إنسان يقتل إنسانا، من أجل برميل نفط، أو شبر أرض، أو لأنه يعبد الله!

جبن الشجعان وشجاعة الجبناء!

عن الجبن العربي في زمن الغطرسة الصهيونية

إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء!

بينما كنت أتصفح لائحة بالأمثال العربية المتداولة والمشهورة، إذا بعيني تقع على مثل يقول: إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء! فتملكني ما يشبه التقهقه أو الضحك من سخرية المشهد الكاريكاتوري الذي يصوره، وهو، في الحقيقة، مشهد ناجح بكل امتياز، إذا ما وظفناه في سينما الرسوم المتحركة، حيث تتابع قطيعا من الغنم الذي ضل سبيله، فتاهت كل شاة منه في اتجاه مخالف لاتجاه الأخريات، حتى أصبح القطيع برمته في مهب المجهول، ومرد هذه الحالة من الضياع، كما قد يستوحى من القراءة الأولى للمثل، إلى غياب الراعي الحقيقي للغنم، الذي بغيابه استبدل براع آخر، هو العنز الجرباء، التي تسلمت مهمة قيادة الغنم التائه المتشرذم، وإن كانت هي نفسها في مسيس الحاجة إلى من يأخذ بزمام أمرها، ويصلح حالها وصحتها، خصوصا وأنها جرباء! يقتاتها الهزال والجوع والتعب، فيا له من مشهد ساخر، يذكرنا بمسرح الكوميديا السوداء، تمتزج فيه الفرجة بالألم، الترويح بالمعاناة، الضحك بالأسف.

غير أن الذي يهمنا أكثر ليس المشهد الذي يتضمنه المثل نفسه، وإنما ما يوحي به من دلالات عميقة، تتجاوز الفهم الحرفي للكلمات والحروف التي تتشكل منهما جملة المثل الشرطية؛ فالغنم ليست تلك الحيوانات الحقيقية التي يربيها الإنسان ويرعاها، ليستفيد من لحومها وأصوافها وغير ذلك، والعنز الجرباء ليست تلك الماعز التي عادة ما تهوى الرعي في سفوح الجبال وأعاليها، فهذه الأشياء أو الحيوانات التي تتكون منها عبارة المثل، ما هي إلا مكونات

لغوية تحمل شحنات رمزية وتعبيرية، توحي بأنها مجرد رموز لها مرموزات حقيقية على أرض الواقع، مما يدعونا إلى أن نضع هذا الاستفهام: ترى ما دلالة الغنم المتفرق؟ وبماذا توحي عبارة العنز الجرباء؟!

لا نملك التفسير المباشر لهذا الاستفهام، إلا إذا امتلكنا الوعي اللازم بالواقع الذي نحن بصدد إنزال هذا المثل عليه، وهو واقع يحتاج إلى أن ننسج له صورة تقريبية، تمكننا من الفهم الكافي لأنساقه الطبيعية والثقافية، التي ما هي إلا ظل لأنساق السياق المصغر الذي ينقله المثل، وهذا الواقع الذي نتوخى فهمه، يتقاسمه محوران، محور الضعف والقوة، الإذعان والهيمنة، الذل والعجرفة، وخير ما يمكن أن ننعت به المحور الأول صفة الجبن، والمحور الثاني صفة الغطرسة.

جبن الشجعان وشجاعة الجبناء!

فتشت في الذاكرة الفردية والجماعية، اللغوية والتراثية، عن مصطلح مناسب يمكن أن نصف به الحالة التي توجد عليها الأمة والأنظمة العربية والإسلامية، في هذا الزمن العجيب، بتطوراته التكنولوجية والمعرفية، وتقلباته السياسية والمناخية، فتريثت عند مجموعة من المصطلحات والنعوت المتداولة مثل: الرجل المريض الذي نعت به الغرب الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر، والشعوب المستعمرة، والمستضعفون في الأرض ، والدول المتخلفة، والعالم الثالث وغير ذلك، فأدركت أن هذه النعوت كلها لا تنطبق إلا نسبيا على حالة الأمة والأنظمة العربية والإسلامية، فهي ليست مريضة مرض الدولة العثمانية، وليست مستعمرة بذلك الشكل التي استعمرت به في القرنين السابقين، وليست مستضعفة استضعافا شاملا، فبين ظهرانيها يوجد المستكبر الذي يستضعف

الضعفاء، والمستضعف الذي يستكبر عليه الأقوياء! وليست متخلفة، مادامت لاتنفك تنجب المفكرين والمثقفين والمبدعين والدكاترة والمهندسين في شتى المجالات والتخصصات، وهكذا دواليك، فاستغرقت في التنقيب عن مصطلح آخر أكثر ملاءمة للحالة العربية والإسلامية، وإذا بي أقف عند مصطلح الجبن، الذي حاولت أن أستجلي ما يوحي به من معان، قد تسري على الوضعية الحرجة التي نوجد عليها، حتى ندرك من نحن، بعيدا عن العنتريات والأمجاد والأجداد، ولو أننا جبلنا على غير ذلك، إلا أننا الآن اكتسبنا سلوكا جديدا جعلنا نفتقد ما جبلنا عليه بالتدريج، فصار أنسب ما ينطبق على واقعنا هو المعنى الذي ضمنه المتنبي هذا البيت الشعري الذي يقول فيه:

يرى الجبناء أن الجبن حزم/// وتلك خديعة الطبع اللـــئيم

فإذا ما أمعنا النظر في حالة الأنظمة العربية والإسلامية المعاصرة، أدركنا أن الشعور الذي يسكن نفوس القائمين عليها، ليس إلا ضربا من الجبن الذي يسمى بشتى المصطلحات البديلة، مثل احترام القوانين الدولية، خدمة المشاريع التي تطرحها منظمة الأمم المتحدة، السلم العالمي، مسيرة السلام، وغير ذلك من المصطلحات الجميلة والبراقة، التي يتم التعامل معها بإرادة مهزومة ونفسية خاضعة، تجعل منها أدوات في يد الدول القوية، تستعملها متى تشاء، وتسخرها لما يضمن مصالحها السياسية والاقتصادية، بعيدا عن أسلوب التوازن والتكافؤ، الذي يعادل بين حقوق وواجبات سائر الأطراف، فهذا التعامل ولو أنه مختل وجائر، وأن كفته تميل إلى الأقوياء، فإن أنظمتنا لا يريبها هذا الاختلال، ولا يشغلها ذلك الجور، بقدرما ترى فيهما أمرا محمودا، ينبغي أن يؤخذ بحزم، ويقابل بشجاعة، حتى تحوز حضورا معتبرا في المحافل الدولية، أما إذا عبرت الشعوب عن رفضها لاضطهاد الأنظمة، وطالبت

بأدنى الحقوق الثقافية والسياسية والمعيشية، فإن ذلك يسمى في قاموس الأنظمة العربية والإسلامية، الشغب والعصيان، ولم لا؟

الجبن الذي يجلب المفاسد للأمة!

هكذا انقلبت الآية، فأصبح أحفاد الشجعان الذين تحدث عنهم التاريخ بإجلال جبناء، إلا أنه يمنع أن يشار إليهم بذلك، فجبنهم حزم، يدخل على الأمة بركة السلام، التي تجود بها خزائن الإدارات الغربية المتصهينة، لذلك فممنوع على الشعوب أن ترفع صراخها المر، لأنه يفسد تلك البركة، فيعرض جبن الأنظمة أو حزمها، لغطرسة الغرب الدفينة واشمئزازه المعلن، وفي مقابل ذلك صار أحفاد الجبناء شجعانا، الجبناء الذين قال فيهم الله تعالى في سورة الحشر: " وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبصار"، حتى صارت كلمة اليهودي (أوذاي) في لغة أهل المغرب الأمازيغية تعني الخائف والجبان، لكن تظل هذه الشجاعة التي أصلها جبن مزيفة، لا تعدو أن تكون إلا ضربا من الغطرسة والتعجرف، الناتج عن امتلاك أسباب القوة والنفوذ، فبمجرد ما تنتفي تلك الأسباب، ينهار قناع تلك الشجاعة، الذي يحجب خلفه هيكل الجبن الهزيل!

أنظمة جبانة وشعوب شجاعة!

ليس من طبيعة المسلم الحقيقي الذي يسخر كل دنياه لأجل آخرته، أن يخاف على أن يضيع شيئا معينا، لأنه لا يملك أصلا ما يضيع، فكل ما تحتويه يداه، إنما هي أمور فانية، سوف يحاسب على الطريقة التي تعامل بها معها، هكذا اكتسب المسلم مشاعر خالية من الخوف من المجهول، والالتفاف حول ملذات الحياة، والتثاقل في أخذ القرار وغير ذلك، مما يجنبه الوقوع فريسة الجبن، الذي قد يجعله هيوبا للأشياء لا يقدم عليها، فيسري عليه قول الشاعر:

إذا غامَرْتَ في شرف مروم/// فلا تقنع بما دون النجوم

فهذا هو حال قسم عظيم من شعوب الأمة العربية والإسلامية، التي تمتطي صهوة المستحيل لأجل إقرار المبادئ الدينية التي تؤمن بها، وتضحي بالنفس والنفيس من أجل الذود عن الهوية التي تمثلها، لذلك فهي تستحق أن توصف بالشجاعة، وإن كانت الأنظمة التي تحكمها تؤول ذلك على أنه شغب وتمرد، وهي لا تعي أن البعوضة على صغرها وحقارتها بمقدورها أن تدمي مقلة الأسد!

ومن سوء حظ هذه الشعوب الشجاعة أنها محكومة من لدن أنظمة جبانة، تكبحها من ترجمة طموحاتها على أرض الواقع، لما تشكله من خطر على مواقعها السياسية والسيادية، والأنكى من ذلك، أنها تتحالف مع العدو الحقيقي الذي يتحين الفرص، حتى ينقض على التركة الحقيقية للأمة، من دين وثقافة وتراث وثروات واقتصاد، انقضاض النسر على الطائر الأعزل، ويتم هذا التحالف تحت شعارات توحي بالتعاون العلمي والثقافي والاستراتيجي وغير ذلك، ولكنها لا تعدو أن تكون إلا مجرد أقنعة تواري خلفها نوايا الهيمنة والغطرسة والاستحواذ، مما يبث في قلوب مختلف الشرائح الاجتماعية إحساس الخيبة والإحباط، لأنها تستشعر أن الأسلوب الذي تنهجه أنظمة الحكم، إنما يصب في خدمة المصالح الصهيونية الكبرى، وأنه يستحيل على الحمل أن يتخذ الذئب صديقا، وإلا فإن عاقبته أن يوقع بنفسه، وعن طواعية، على مرسوم يقضي بأن يذبح بمخالب وأنياب صديقه الحميم، ويصير مأدبة شهية له ولجرائه، فهل تدارك الحكام العرب أنهم مجرد حملان وديعين وأن الغرب المتصهين ذئب داهية؟ وهل تقرر لهم أن هذا الذئب قبل أن يأتي على ما يتمتعون به من مناصب وأبهة وجاه، سوف يمهلهم طويلا حتى يتمكن من نفوسهم الهشة، ويوجههم وفق مخططاته الجهنمية التي تتلبس دوما بما هو اقتصادي وعلمي وثقافي ودبلوماسي ونحو

ذلك، إلا أنه يندس فيها ما هو أفضع للبلاد والعباد، كما يندس السم في الدسم!

ولا أدل على ذلك مما تربى عليه أجيال الدولة العبرية داخل المدارس والبيوت، التي تحقن بتعاليم الصهيونية المبطنة، بأفكار الهيمنة الظالمة التي تباركها القوانين الدولية على حساب الغير، والبغضاء المشهودة للإسلام وذويه، التي غالبا ما تسمى بمسميات أخرى، كمواجهة الإرهاب، ونشر السلم، والتعاون السياسي، وتبادل الخبرات، والتحالف العسكري، والسوق الحرة، وعولمة الاقتصاد وغير ذلك، وكلها مصطلحات مبهمة لأنها تحجب خلفها أكثر مما تبديه، لذلك فالأنظمة العربية والإسلامية لا تأخذ إلا ذلك البادي من هذه المصطلحات والمشاريع، من بهرجة إعلامية ووعود سياسية ومجاملات ثقافية، وهذا أمر جد عاد، مادام أنها لا يمكن لها أن تستوعب إلا ما هو سطحي، أما العميق من الأمور فلا يدركه إلا أولو الألباب، من العلماء والمثقفين والمتخصصين، الذين إما يقبعون خلف قضبان السجون أو الرقابة، وإما يعيشون منفيين في الخارج.

فهل سمعتم يوما ما أن حاكما عربيا أو مسلما، استفتى شعبه في أمر يخص مصير الأمة، مثل التطبيع مع إسرائيل، وإقامة قواعد أمريكية على أرض الوطن، التي هي ملك لسائر المواطنين، وغير ذلك من الأمور المصيرية، أم أن الشعب يستفتى فقط أثناء تعديل الدساتير، التي لا يكتبها بعرقه ودمه، وإنما يبدعها كتبة القصور بوحي من شيطان الشعر الأمريكي أو الفرنسي أو السويسري أو غيرهم، فهل اعترف يوما ما حاكم عربي أو مسلم بأنه أخطأ في أمر معين، وأنه يعتذر لشعبه، أم أن الشعب هو وحده الذي يخطئ ويحاسب فيعاقب! فلا يكون هؤلاء الحكام ذئابا إلا مع شعوبهم الأبية التي لا تريد إلا الخير، لأوطانها الممسوخة هوياتها،

والمنهوبة ثرواتها، والمرهونة حرياتها، أما مع الأعداء فيصبحون حملانا، يعبقون وداعة ولطفا وحيوية! وهذه الازدواجية في التعامل إنما مترتبة عن آفة الجبن التي تتخبط فيها أنظمتنا، لذلك فهي مع شعوبها تتظاهر بالشجاعة والحزم والأخذ بزمام الأمر، ومع الغرب المتصهين تتعامل بالمجاملة والبذل والتعاون.

فكانت نتيجة هذه الازدواجية التشرذم العارم الذي رزئت به الأمة العربية والإسلامية، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، حيث على مستوى الإدارة تشتتت الأنظمة العربية والإسلامية، في الوقت الذي تتوحد فيه الأنظمة الأوروبية والغربية، فصار العالم الإسلامي، على تلاحمه الجغرافي والتاريخي والديني، عبارة عن جزر جرباء تتقاذفها رياح العزلة والانصياع، أما على صعيد القاعدة فافتقدت الشعوب البوصلة التي توجهها إلى بر الأمان، فأمست بمثابة ذلك القطيع من الغنم الذي غاب عنه راعيه الأمين، فتشرذمت شياهه في متاهات موحشة مظلمة، ترى هل أدركتم معنى الغنم المتفرق؟ وبماذا توحي عبارة العنز الجرباء؟! ترى هل استوعبتم الدلالة العميقة التي يحملها هذا المثل العربي القديم: إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء!

العجز أم التعاجز العربي؟!

كنا قد وصفنا في إحدى مقالاتنا الحالة العربية والإسلامية العامة بالجبن، حيث انقلبت الآية، فصار شجعان الماضي، وهم العرب والمسلمون، جبناء! وأصبح جبناء الماضي، وهم اليهود، شجعانا!
ونفس الوصف يسري على تعاطي الأنظمة العربية وتعاملها مع مجموعة من القضايا، وهو تعاط ناقص وهش، وتعامل ساذج وجبان، يتفق أكثر من دارس على اعتباره نتيجة متوقعة للعجز العربي الفادح، الذي أوقع الأمة الإسلامية في هذا المستنقع الرهيب، فأضحت فريسة التكالب الغربي- الصهيوني.
غير أن ثمة رأي وجيه، للأستاذ طاهر العدوان، مفاده أن "شعار العجز العربي شعار كاذب مضلل وهو لا يعكس قدرات وإمكانات الأنظمة, التي بوسعها أن تفعل الكثير لوضع حد للاحتلال والغطرسة الإسرائيلية, وبوسعها أن تقوم بالكثير من أجل إجبار الولايات المتحدة على اتباع سياسة متوازنة في الصراع العربي الإسرائيلي." استنادا إلى هذا الرأي يمكن أن نخلص إلى أن الأمة العربية والإسلامية ليست عاجزة، وأن هذه العاهة التي تتخبط فيها لا يمكن أن نطلق عليها مصطلح العجز، وإلا فإننا نحمل القضية ما لا تحتمل، ودون وعي منا نجانب الحقيقة، مناقصين أو مزايدين، خصوصا وأن ثمة أكثر من مؤشر واقعي يفند كوننا عاجزين، ابتداء من الموقع الاستراتيجي الذي يتميز به العالم الإسلامي، وانتهاء بالثروة البشرية والطبيعية التي تتنعم بها أغلب الدول العربية والإسلامية، التي من شأنها أن تجعل الأمة العربية والإسلامية قاطبة في غنى عن الغير، لكن عوض ما تنهض بنا هذه الإمكانات الهائلة، فإنها بثت في نفوسنا التقاعس والوهن والاتكال،

فصرنا، كما توقع رسولنا الكريم (ص) قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، غثاء كغثاء السيل!

إن لم يكن هذا الذي أصابنا عجزا، فماذا سيكون إذن؟!

لقد اتفقت القواميس العربية، قديمها وحديثها، على أن لفظة العجز تعني نقيض ما تعنيه لفظة الحزم، وهو الضعف وعدم القدرة، ورد في لسان العرب "وعَجَزَ عنهُ يعجِز وعَجِزَ يعجَز (...) ضعف أي لم يقتدر عليهِ وضدُّ حَزَمَ"، وجاء في الغني "أَظْهَرَ عَجْزاً" : ضَعْفاً، عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى القِيَامِ بِعَمَلٍ مَّا، وأشار معجم محيط المحيط إلى أن العجز هو الضعف، ودعم ذلك بحديث عمر: "ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجِزَة أَي لا تقيموا ببلدة تَعْجِزُون فيها عن الاكتساب والتعيش, وقيل بالثَّغْر مع العيال". فهل حقا أن العالم العربي والإسلامي ضعيف وغير قادر كما تنص هذه التحديدات اللغوية، وهو الذي يزخر بأكبر احتياطات العالم من الموارد الطبيعية، وتحتل دوله أفضل مواقع الكرة الأرضية، التي تؤهلها لأن تكون مركز الكون، تواصلا واستثمارا، بل وإنه يخرج كل لحظة آلاف الأدمغة، وفي مختلف العلوم والتخصصات، التي تتشتت عبر بقاع المعمورة، وهكذا دواليك.

على هذا الأساس فإن العجز العربي والإسلامي الذي هو حديث الساعة، لا يعدو أن يكون إلا صناعة إعلامية غربية، التي آنس أصحابها تزييف تاريخ الواقع وواقع التاريخ، إلى درجة أن لا شاغل يشغلهم إلا نحت المصطلحات البراقة ولصقها بالآخر، مثل الإرهاب وصراع الحضارات والعولمة واللائحة طويلة، حتى أصبح الفكر المعاصر مفخخا بمجموعة من المقولات والطروح المخادعة التي غالبا ما تكون مصيدة للكثير من كتابنا ومثقفينا المتغربين أو المنبهرين، الذين يلتهمون بشراهة ودون تمحيص أو نظر، ما يصدر عن الغرب، فيعيدون إنتاجه (أو يتقيأونه!) مسقطين

إياه على المجتمع والذات الإسلامية، وهم لا يأخذون بعين الاعتبار فوارقنا التاريخية والعقيدية والثقافية وغير ذلك عن الآخر، مما يؤثر سلبا على بنية المجتمع الإسلامي المعاصر، فيصاب المحكوم (الذي هو الشعب) باليأس والإحباط من جراء تأخر أمته، فيركن إلى الاتكالية والإرجائية، وهو يزعم أن ما يتخبط فيه إنما هو قدر محتوم عليه وعلى مجتمعه، فلا فكاك منه إلا بكثرة الدعاء والانتظار بصبر أيوب! أما الحاكم فيعترف بعجزه مصداقا لمقولات الإعلام الغربي، وليس انطلاقا من قدرات أمته الهائلة وإمكاناتها المشهودة. وكلاهما؛ المحكوم والحاكم ينسى أن إرادة الشعوب لا تقهر، وأن العجز الذي يوصف به العالم العربي والإسلامي مفتعل لا غير، فإن لم يكن هذا الذي أصابنا عجزا، فماذا سيكون إذن؟! إنه التعاجز!

لقد نقبنا في المعاجم العربية القديمة والحديثة علنا نضفر بتعريف ما لمصدر التعاجز، لكن باءت محاولتنا بالفشل، خصوصا وأن أي واحد منها لم يتطرق ولو لصيغة الفعل التي يمكن استخراجها من هذا المصدر وهي (تعاجز)، مما أوقعنا في نوع من الحرج، الذي كاد يجعلنا نتخلى عن كتابة هذا الموضوع، أو البحث عن بديل مصطلحي آخر، لكن بعد ترو واختمار لفكرة الموضوع، تساءلنا عن إمكانية الاستنجاد بالنحو العربي لفهم هذا الإشكال اللغوي والدلالي لمصطلح التعاجز، حيث من المعلوم أن الزيادة في الحروف التي تعتري صيغة الفعل الأصلية، تمنحه دلالات ومعان جديدة، ومادام أن صيغة لفظة (تعاجز) التي هي (تفاعل) مزيدة على الأصل (عجز) بحرفين، فإن الدلالة لا شك سوف تتغير، فنصبح أمام مصطلح آخر، ذي معنى آخر. وقد أثبت النحاة لصيغة (تفاعل) خمسة معان وهي:

- المشاركة بين أمرين فأكثر ، فيكون كل منهما فاعلا في اللفظ، ومفعولا في المعنى. نحو: تبارز، تصارع، تقاتل، تنازل، تلاكم، تشارك.
- التظاهر: وهو ادعاء الفاعل بحصول الفعل له، وهو منتف عنه. نحو: تجاهلت الأمر. أي: أظهرت من نفسي التجاهل للأمر دون الحقيقة.
- للدلالة على التدرج. أي: حصول الفعل شيئا فشيئا. نحو: تزايد السيل.
- مطاوعة "فاعل". ويقصد بالمطاوعة هنا: التأثر وقبول أثر الفعل سواء أكان التأثر متعديا. نحو: علمته الرماية. فتعلمها، أي: قبل التعليم وتأثر به.
- ويأتي "تفاعل" مطاوع "فاعل"، إذا كان فاعل لجعل الشيء ذا أصله. نحو: باعدته. فتباعد، أي: بَعُدَ.

بعد القراءة المتأنية لهذه المعاني الخمسة، يستخلص أن المعنى الثاني الذي يفيد التظاهر، هو الأكثر مناسبة لمصطلح التعاجز، الذي يمكن أن نعرفه بأنه التظاهر بالعجز، حيث أن الأمة العربية والإسلامية ليست عاجزة عجزا حقيقيا، وإنما هي متعاجزة، تتظاهر بالعجز، نتيجة أسباب مختلفة قد تكون ذاتية، ترسبت من جراء الهزات العنيفة التي تعرضت لها، فأثرت بشكل عميق وسحيق في سيكولوجية الإنسان المسلم، وقد تكون أسباب خارجية روج فيها الإعلام والفكر الغربي لمقولة عجز المسلمين وضعفهم وتقهقرهم، فبدل أن نتحداها ونواجه مغالطاتها، راح ثلة من مثقفينا يحملونها على محمل الحقيقة والصدق!

ويجدر الإلماع إلى أن معنى التظاهر هذا غير محمود، لأن المتظاهر بسلوك ما، يواري الحقيقة الأصلية بحقيقة مزيفة، يخادع بها الذات والمجتمع والآخر، اللهم إلا إذا كان تظاهره صادقا، وقد

ورد في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ما ينهى عن ادعاء المرض والتظاهر به، "لا تمارضوا فتمرضوا فتموتوا فتذهب ريحكم"، لأن من يتظاهر بسلوك معين، فإن ذلك السلوك يصبح من شيمه، فيسقط في مأزق عارم لا فكاك منه، وكأن الأمة العربية والإسلامية التي ادعت التعاجز، أضحت بذلك الادعاء الخادع عاجزة، ليس عن النهوض والتغير، وإنما عاجزة عن الإقلاع عن سلوك التعاجز الذي أكسبها الخمول والتهاون والارتكاس، فمن شب على شئ شاب عليه!

وقد ذهب الأستاذ عبد المالك سلمان، في مقالة له بعنوان (ماذا وراء العجز العربي في التصدي للحرب الأمريكية؟!) إلى أن العجز أو التعاجز العربي هو نتيجة أربعة عوامل، نلخصها كما يأتي:

- سعي كل نظام عربي الدؤوب واللحوح إلى الحفاظ على بقاء نظامه السياسي، وهو من أجل ذلك يضحي بكل غال ورخيص، بما في ذلك إهدار الكرامة والسيادة والاستقلال الوطني والانسحاق تماما أمام الهيمنة الأمريكية.
- محاولة الحكام الحفاظ على ما لديهم من ثروات نهبوها طوال فترة حكمهم لشعوبهم، وجرى إيداعها في المصارف والبنوك الأمريكية والغربية أو تم توظيفها في استثمارات اقتصادية وعقارية مباشرة في السوقين الأوروبية والأمريكية، وهي ثروات تقدر بمليارات الدولارات.
- إن أمثال هؤلاء الحكام ليست لديهم الثقة في تأييد وولاء شعوبهم لهم، فلم يعملوا على تأسيس شرعية سياسية شعبية تستند الى المصداقية والشفافية والنزاهة.
- إنهيار مفهوم التضامن العربي عملياً، فكثير من الأنظمة العربية تخشى إن أظهرت سياسات حازمة في التصدي للهجمة الأمريكية أن تخذلها بقية النظم العربية الأخرى التي

تتظاهر بالتضامن معها في هذه السياسة، فيما تقوم سرا بطعن شقيقاتها العربيات من الخلف والتعاون مع أمريكا عمليا.

وقد ترتب عن هذه العوامل، التي تبدو منطقية وواقعية، آثار سلبية مست المجتمع العربي والإسلامي في مختلف مستوياته الثقافية والتربوية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك، بل والأنكى من ذلك أنها ولدت لدى الأغلبية الساحقة أزمة سيكولوجية ملبدة بمشاعر الإحباط والتردي والنكوص، إلى درجة فقدان الثقة في انبعاث الأمة وصحوتها، ومن ثم التحاقها بركب الأمم المتقدمة، وكأن عاهة التعاجز تسربت حتى إلى بنية تفكير الإنسان المسلم، فأضحى لا يرى الأمور ولا يفسرها إلا في بعد أحادي، كما أنه ليس ثمة أبعاد وإمكانات بديلة من شأنها أن تمنحه فسحة الأمل في التحول والصيرورة.

الخلاصة مما سبق، أن العجز العربي لا وجود له إلا على المستوى النظري، أما على المستوى الواقعي فيمكن الحديث عن آفة التعاجز التي تنخر كيان الأمة العربية والإسلامية، وهي آفة مصطنعة ومكتسبة من جراء تضافر مجموعة من الظروف والتداعيات، وهذا يعني أنها ليست متجذرة في الذات، فكما أنه تم اكتسابها عبر أطوار معينة، فيمكن كذلك التخلي عنها أو استبدالها بالذي هو أحسن!

عنف الكنيسة المقنن

"عمل جماعتنا على سلق الوثنيين ــ يقصد المسلمين ــ البالغين في الطناجر، وثبتوا جثث الأطفال على الأسياخ والتهموها مشوية"! هكذا وصف المؤرخ الصليبي، راول دي كين، بعض فضائح الحملة الصليبية التي أعطى انطلاقتها البابا أوربان الثاني Urban II سنة 1095، وهي شهادة ميدانية حية، مادام ناقلها كان مرافقا لتلك الحملة، وقد رآها رأي العين.

عندما تلمس ناظري هذه العبارات وغيرها من العبارات الكثيرة التي تنضح بالفضاعة والرهبة والقرف، تداعى خاطري إلى الضجة المباغتة والعارمة التي أحدثها بابا الفاتيكان الجديد (بينديكتس السادس عشر) عقب المحاضرة التي ألقاها بجامعة ريجنسبورج الألمانية، وذلك يوم 13 سبتمبر 2006، وهي ضجة ترتبت عن الإساءة الملموسة، التي تضمنها خطابه، للإسلام؛ عقيدة وحضارة ونبيا، حيث راح يشرّح بمبضعه الكنيسي جسد الإسلام، عاملا فيه يد التشويه والمسخ، دونما تمحيص أو ترو أو رزانة، وهو تشريح مؤذ حتى النخاع، يذكرنا بأجسام الأطفال البريئة وهي تطهى في الطناجر، وتشوى على الأعواد، ليلتهمها برابرة القرون الوسطى، الذين عاثوا في الأرض فسادا باسم الصليب، وباسم المسيح!

هذا ناهيك عن المجازر الكثيرة الشنيعة، التي ما انفكت تحتفظ بها ذاكرة التاريخ، وهي تصور لنا مشاهد الحملات الصليبية، حيث دم المسلمين الأباة يلطخ جدران المسجد الأقصى، بل وأن الصليبيين، كما ينقل المؤرخ الانويم، يمشون في الدم حتى عراقيب أرجلهم، وأن أكوام الرؤوس والأيدي، كما يصف مؤرخ آخر، ترى من بعيد في الساحات والشوارع! وغير ذلك من المشاهد الرهيبة التي لا نعهد رؤيتها إلا في السينما الهوليودية.

هذه هي الحقائق التاريخية الحية المروية في كتب الصليبيين، بألسنة أحبارهم وأقلام مؤرخيهم، التي دعت بشدة الكنيسة الكاثوليكية، ولأول مرة في تاريخها، أثناء (يوم الغفران) لسنة 2000، لـــ "طلب الصفح عن أخطائها وخطاياها بحق المسيحيين أنفسهم وبحق أتباع الديانات والثقافات الأخرى"، وذلك بغرض التطهير وغسل الأرواح من الذنوب والكراهية التي أدت عبر القرون إلى أنهار من الدماء والخراب والمآسي وغير ذلك، كما جاء على لسان البابا يوحنا بولس الثاني.

يمكن أن نستتشف من هذا التمهيد المقتضب أمرين، قد يشكلان المدخل النظري لفهم حقيقة الضجة الأخيرة التي أحدثها بابا الفاتيكان، عندما أدلى بتصريحات كاذبة، يعلوها صدأ الزيف، حول الدين الإسلامي، هذان الأمران هما:

1 - إن المجازر التي مورست أثناء الحروب الصليبية على المسلمين الأبرياء، تحت راية المسيحية، حقيقة مؤكدة تثبتها مختلف المؤلفات والكتب التاريخية الغربية، التي ارتأينا أن نتريث عند بعض ما ورد فيها، دون أن نعرج على ما جاء في الكتب التاريخية العربية والإسلامية، حتى نفهم الحدث من خلال الأدلة والمعطيات التي يوفرها لنا صانع هذا الحدث نفسه، لا من خلال أدلتنا أو معطياتنا التي قد تجانب الموضوعية وتفتقد المصداقية، تأثرا بفضاعة تلك الوقائع الرهيبة. على هذا الأساس فإن كل ما مورس أثناء الحروب الصليبية من جرائم ومجازر على المسلمين من قبل النصارى، حقائق لا غبار عليها، مادام التاريخ الكنيسي نفسه يثبت ذلك على ألسنة مؤرخيه الصليبيين، هذا إن عبر عن شئ، فإنه يعبر عن أن جذور العنف تطلع من تربة الكنيسة، أو بالأحرى من تربة البلاد التي كانت محكومة بإرادة البابا، وهي جذور أثمرت أشواكا، امتدت لتجرح الآخرين، الذين كانت أغلبيتهم

مسلمة، في حين كانت تعيش أقليات مسيحية بين ظهراني تلك الأغلبية المسلمة، دون أن يكتنفها عنف، أو تمسها إساءة. وهي مفارقة عجيبة انفرد بها التاريخ الإسلامي، حيث كانت الدولة الإسلامية، داخليا، توفر الأمن لأهل الذمة من النصارى واليهود، وخارجيا تجابه أعداءها النصرانيين!

2 نفس الخلاصة التي أثبتناها في العنصر السابق، والتي فحواها أن الكنيسة، تاريخيا، هي التي بدأت بممارسة العنف والتحفيز عليه، سوف يؤكدها البابا يوحنا بولس الثاني سنة 2000، عندما سيعترف بأخطاء الكنيسة الكاثوليكية وخطاياها، في حق الجميع، مسيحيين أو أتباع الديانات والثقافات الأخرى، ومنهم المسلمون. هكذا يبوح صانع الحدث بجريمته العظمى، فلا يدع مجالا للشك، غير أن هذا البوح لا يعدو أن يكون إلا حبرا على ورق، يعوزه التنفيذ الواقعي على سائر الأصعدة، سياسية كانت أو إعلامية أو فكرية أو تربوية أو غير ذلك.

عقدة العداء للإسلام

"فقط أرني ما أتى به محمد وجاء جديدا، عندها ستجد فقط ما هو شرير ولا إنساني، كأمره نشر الدين الذي نادى به بالسيف". لم يجد بابا الفاتيكان الحالي (بينديكتس السادس عشر) إلا هذه الجمل ليستشهد بها في محاضرة علمية، ألقاها في جامعة ريجنسبورج الألمانية، أمام نخبة من المثقفين والأكاديميين، وهذا أمر جد عادي، لأن الكنيسة مجبولة على مثل هذا السلوك، الذي يعبر عن انفصام عميق في شخصيتها المتقلبة الأطوار، فهي تبدي غير ما تخفي، وتعلن عكس ما تُكنّ! وهذا ما يظهر بوضوح في أغلب مقاطع المحاضرة التي ألقاها البابا، وهي تعقد مقارنة ضمنية بين الإسلام والمسيحية، لا تتكشف للقارئ إلا من خلال القراءة العميقة، ليخلص من ذلك، بشكل أو بآخر، إلى إثبات أفضلية المسيحية على الإسلام،

وهذا ما يستجلى منذ البداية من تهجمه على الإسلام، وقدحه الظاهر في جملة من الأمور التي تعتبر مسلمات وبديهيات في العقيدة الإسلامية.

ولئن كان واضحا بالمنطق العقلي المنظور، والدليل الواقعي الملموس لدى الكنيسة، أن الدين الإسلامي يشمل كل تلك السلوكات والمعاملات والأخلاق والقيم التي من شأنها أن تخلق عالما سمحا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) البقرة/208، تنتفي فيه الفوارق الطبقية، وتتلاشى فيه العنصرية العرقية أو الدينية أو غيرهما، إلى درجة أن قوانين الشريعة الإسلامية تسمح لرعايا الدول الأجنبية المعادية للإسلام بحق المواطنة على تراب الدولة الإسلامية، ولئن كان الأمر كذلك، فإن الكنيسة طالما تجاهلت هذا الوجه السمح للإسلام، وصنفته في لائحة الأديان أو الثقافات المنبوذة، ليس لأنه يستحق النبذ، ولكن لأنه يملك الحقيقة التي تخشى منها الكنيسة، هذه الحقيقة التي سعت بكل ما ملكته من قوة وجبروت ونفوذ إلى طمسها (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) المائدة/41، والترويج لها بالأسلوب الذي يلائم مصالحها الأيديولوجية والسياسية والمادية، وقد انبثقت عن سلوك النبذ هذا عقدة العداء الشرس لكل ما تشتم منه رائحة الإسلام، وقد اختلفت أشكال هذا العداء، بين مادي من حروب ومواجهات واستعمارات، ومعنوي أو رمزي من تحريف للمعطيات وتشويه للحقائق وإفشاء للأكاذيب وإحداث للأراجيف.

إن العداء المادي يمس المجتمع في أرواحه ومرافقه ومعماره، ويترتب عن ذلك شرخ نفسي بليغ، لكنه ومع ذلك فقد تتبدد تلك الآثار مع مرور الأيام، لأنه بدوران التاريخ يتحول ذلك المجتمع إلى طور آخر من الحياة، ويلج مرحلة تاريخية تختلف عن التي سبقتها، فيصبح الحديث عن العداء المادي، إما من باب التذكير أو من باب البكاء على الأطلال، غير أنه في علاقة الإسلام بالمسيحية يتخذ الأمر

مسارا مغايرا، يبدو فيه الصراع بين الطرفين مستمرا إلى ما لا نهاية، يتلبس بمختلف التسميات والمصطلحات (حروب صليبية، استعمار، صراع الغرب والشرق، مواجهة الإرهاب، صراع الإسلام والغرب...).حتى أنك تشعر بأن المستقبل يعد بمواجهة عظمى بينهما!

أما العداء المعنوي أو الرمزي فيعتري المجتمع في معارفه وأفكاره وحقائقه ومعتقداته، فهو بذلك أشد وطأ من العداء المادي، حقا إن أثر العداء الأول يبدو جليا للعين، التي تشهد القتل والتنكيل والدمار والتخريب، ويحز بشكل عميق في النفس، التي تحذوها الجراحات والأورام، لكن ومع ذلك، فإن كل تلك الملمات والويلات التي تصيب البدن والنفس والمال، لا تعادل طمس حقيقة واحدة من حقائق العقيدة الإسلامية، التي تجد أصلها في كلام الله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) البقرة/105 (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) الإسراء/176، أو سنة رسوله الكريم ﷺ (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) النجم/3، وفي هذا الإطار يمكن إدراج خطاب البابا بنيديكتس، الذي يكشف عن عداء معنوي سافر للإسلام، حيث ينسب في أكثر من موضع من محاضرته سلوكا ما إلى الإسلام، وإن كانت الحقيقة غير ذلك، وهذا لعمري نابع من النظرة العدائية التي تطغى على علاقة الكنيسة بالإسلام، وهي نظرة تحاول أغلب المؤسسات المسيحية تعميمها بين أوساط أنصارها ومريديها في شتى أنحاء العالم، مطعمة إياها بنشر حقائق مغلوطة حول الإسلام، تسري في عقولهم الجاهلة سريان السم في الدم!

ثم إن هذا العداء بصنفيه؛ المادي والمعنوي، يُسعى من خلاله إلى التنقيص من شأن الدين الإسلامي، بأسلوب يوحي بأنه عقلاني، مادام أنه ينطلق من جملة من المعطيات التي يحسبها المسيحي العادي أمورا حقيقية، فيسلم بها دون تشكيك أو تردد، على هذا الأساس يمكن

رد الرأي الشائع الذي يقول بأن الإساءات التي تمارس من فينة لأخرى، من لدن الغرب على الإسلام، إنما ناجمة عن جهل أولئك المسيئين بحقيقة وطبيعة هذا الدين، وهذا رأي يعبر إما عن استخفاف الغرب بنا واستحماره لنا، وإما عن سذاجة من يأخذ به وقلة إلمامه بعلاقة الغرب بالإسلام، لأن هذا الغرب الذي استعمرنا أمدا طويلا، واستحوذ على طاقاتنا البشرية والطبيعية، ومكاسبنا التراثية والثقافية، مكنته هذه التجربة التي كانت علينا وبالا، وكانت له فتحا، (مصائب قوم عند قوم فوائد)، من أن يتعلم الكثير عن الدين والثقافة الإسلامية، بل ويدرك طبيعة الهوية والشخصية الإسلامية، حتى أن مستشرقيه ومبشريه كانوا يدونون كل صغيرة وكبيرة عن الإسلام، ويأتي اليوم من يبرر ما قاله البابا، معتبرا إياه يجهل حقيقة الإسلام عقيدة وحضارة، وهم يعلمون أن البابا ليس شخصا عاديا، وإنما هو مثقف كبير، سبق له وأن درس علم اللاهوت وتاريخ العقيدة في جامعة بون وغيرها منذ سنة 1959، وهذا يعبر عن أنه يملك معرفة كافية عن الدين الإسلامي. وإلا فما هي الدلالات العميقة لهذه العبارات التي ضمنها بيانه الشخصي، الذي تلا الضجة العارمة التي أحدثتها محاضرته، وهو يقول فيه: "انني أشعر بأسف عميق لردود الفعل في بعض البلدان لفقرات قليلة من خطابي بجامعة ريغينسبورغ، والتي اعتبرت مسيئة لمشاعر المسلمين. لقد كانت هذه في الواقع اقتباسا من نص يرجع للعصور الوسطى، ولا يعبر بأي صورة عن فكري الخاص". غير أن هذا الأسف الموسوم بالعميق، ليس عميقا إلا على المستوى الشكلي، وإلا فلماذا يظل البابا متمسكا بالمقارنة المجحفة التي عقدها في محاضرته بين الإسلام والمسيحية، فماذا يمكن أن نعتبر هذه الازدواجية في الخطاب؛ تناقضا غير مقصود، أم انفصاما مرضيا، أم عداء مقننا ضد الإسلام؟

بناء على ما سلف، نخلص إلى أن تصريحات البابا حول الإسلام غير نابعة من جهله أو عدم معرفته بهذا الدين، ربما يسري هذا على الإنسان الغربي العادي، الذي لا يدرك الإسلام إلا من خلال تلك الصورة المقزمة التي يقدمها له الإعلام، وإنما تُفسر تلك التصريحات بالنظرة العدائية التي يُقيّم بها البابا الإسلام، وهي نظرة تقتضي منه نهج أسلوب الطمس والتزييف، وقد اعتبر د. يوسف القرضاوي أن القول الذي اقتبسه البابا من الإمبراطور البيزنطي، مبني على الجهل المحض، أو الكذب المحض، فنحن نستبعد الشق الأول من كلام القرضاوي، لأن البابا ليس جاهلا بالإسلام، وإنما كاذب، كما جاء في الشق الثاني، سوّل له عداؤه أن يقول ما قال! و "إن لم تستحي فاصنع ما شئت" كما قال الرسول الكريم محمد ﷺ.

عن النص والسياق

تجدر الإشارة إلى أنه تم اختيار زمن إلقاء محاضرة البابا بنيديكتس السادس عشر بجامعة ريجنسبورج الألمانية بدقة كبيرة، وهو الثالث عشر من سبتمبر 2006، الذي يتزامن، تقريبا، مع ذكرى هجمات الحادي عشر على نيويورك وواشنطن، وكأنه يسعى من خلال ذلك إلى تأكيد خطر الإسلام على الغرب، وهذا ما يحيل عليه أكثر من موضع في محاضرته، التي استدعت قراءات متعددة، تختلف من فرد إلى آخر، ومن دولة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، فإذا كانت القراءات العربية والإسلامية لخطاب البابا تتفق، بشكل كثيف، حول أن البابا أساء إلى الإسلام بوعي تام، وأن ما ورد في المحاضرة يعبر عن موقف الفاتيكان المعادي للإسلام، ذلك نفسه ما وجد له صدى عارما عبر الشارع العربي والإسلامي، فإن القراءات الغربية تلتقي أغلبها في فكرة أن كلام البابا أسئ فهمه، وأنه لم يقصد إساءة الإسلام كما ورد في صحيفة (التراو) الهولندية، وأن ذلك سوف يترتب عنه ضرر ديبلوماسي في علاقة الفاتيكان بالإسلام، وعلى هذا المنوال

تمضي معظم وسائل الإعلام الغربية، وقلما نجد رأيا يعارض ما تفوه به البابا، ولو كان صادرا عن رجل فكر، كالمفكر الفرنسي (جيل كيبيل) المعروف المتخصص في قضايا الإسلام والغرب، الذي رأى أن كلام البابا ينطوي على مجازفة، قد تحمل جزءا من المسلمين على التطرف.

إن معاملة الإسلام لغير المسلمين، انبنت على نهج الآية الكريمة "لا إكراه في الدين" البقرة/256، والدليل القاطع على ذلك هو حرية التدين التي تمتع بها أهل الذمة داخل الدولة الإسلامية، على مر العصور، وعبر شتى البقاع، والبابا على علم أكيد بهذه الحقيقة التي انفرد بها الإسلام، واقعيا وتاريخيا، عن سائر الأديان، لكنه ماض في غيه، الذي زين له أن يقول أن محمدا ﷺ حض على نشر الإسلام بالسيف، وبأسلوب المراوغة وازدواجية الخطاب يريد أن يتملص مما قاله، مبررا بأن ذلك ليس كلامه، ونحن نعلم أن الإنسان لا يقول إلا ما يعتقد به، وإنما هو كلام مقتبس من حوار جرى في القرون الوسطى، بين الإمبراطور البيزنطي واسع العلم مانويل باليولوغوس الثاني وفارسي متعلم حول المسيحية والإسلام، وتبريرا لاقتباس الإمبراطور حول أن الإسلام نشر بالسيف، يعززه بشرح ينسبه كذلك إلى الإمبراطور، وهو يتساءل؛ "لماذا إن نشر الإيمان بالعنف أمر مناف للعقل والمنطق، فالعنف لا يتفق وطبيعة الله ولا يتفق وطبيعة الروح". وهو يغض الطرف عن عنف الكنيسة الذي استغرق قرونا عدة، وهو عنف أثبته البابا السابق بأسلوب مخجل، يطلب فيه الصفح والغفران.

وفيما يتعلق بحديث البابا حول العقل في الإسلام على أن "الله جل عن كل شيء، فعال لما يريد منزه عن أي من قوالبنا، بما في ذلك العقل والمنطق". فإن خير رد على ذلك هو ما تضمنه بيان الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين الذي ورد فيه: "ولو رجع (يقصد البابا) إلى قول

أئمة الإسلام، (...) لوجدهم يقولون: إن العقل أساس النقل، ولولا العقل ما قام النقل، ولا ثبت الوحي؛ لأن ثبوت النبوة لا يتم إلا بالعقل، وثبوت النبوة لشخص معين لا يتم أيضًا إلا بالعقل. ولا يقبل المحققون من علماء الإسلام من آمن بالإسلام تقليدًا لآبائه، دون إعمال للعقل، ونظر في الأدلة، ولو بالإجمال".

يقينا، إن البابا سقط في مأزق لم يكن في حسبانه، وهو مأزق كان من السهولة بمكان الانفلات منه، عن طريق اعتذار لا يقتضي منه إلا دقائق معدودات، لكنه لم يفعل ذلك، وإنما اكتفى بالأسف الشكلي الذي لا يغني ولا يسمن من جوع، ترى لماذا يركب البابا صهوة العناد والكبرياء، ولا يستفيد من مواقف البابا السابق الذي كان يعرف كيف يداهن خصومه؟ ترى ما هي الخلفيات التي تدعوه لشن هذه الحملة الجديدة على الإسلام وهو الذي سبق له واستنكر رسوم الجريدة الدنماركية التي أساءت إلى الرسول ﷺ؟ ألا ينطوي نص خطابه على تناقض صارخ؟

كما تمت الإشارة في أكثر من موطن من هذا المقال، ثمة عداء دفين للإسلام من لدن الدعاة الغربيين إلى حوار الأديان، هذا العداء يطفو من حين إلى آخر على سطح الواقع، وهذا ما يسري على حالة البابا، وإن كانت بعض المصادر الإعلامية تقول "أن صقور الفاتيكان وعلى رأسهم الكاردينال الألماني فالتر كاسبير هم من أعدوا نص المحاضرة التي ألقاها البابا بالجامعة الألمانية، وذلك من أجل إقناع المسيحيين بأن الفاتيكان تعيش نفس الهموم التي يعيشها المسيحيون عبر العالم، وأن موقفها من الإسلام واضح ومخالف للبابا الراحل يوحنا بولس الثاني"، مما يشير إلى أن الحرب الجديدة ضد الإسلام سلسلة ذات حلقات مترابطة، ولو اختلفت توجهات ومشارب الذين يقودونها أو يدعون إليها، من رجال سياسة ودين وفكر وفن وغير ذلك.

خلاصة القول، كيف كان رد فعل المسلمين قادة وعلماء ومثقفين وشعوبا، على حملة البابا على الإسلام؟ هل ثمة من جديد في مواقفهم أم أن دار لقمان بقيت على حالها؟ فيما يتعلق بقادة العالم العربي والإسلامي لم نسمع إلا بعض الأصوات المحتشمة الخافتة، التي عبرت في شكل عشوائي عن استيائها الأبيض من تصريحات البابا، في الوقت الذي كنا ننتظر منها أن تنهض بقوة، وتقف وقفة رجل واحد ضد هذه الإساءة، وتصدر قرارات سياسية جادة وصارمة تضع الفاتيكان أمام أمر الواقع، عن طريق المقاطعة الديبلوماسية والاقتصادية، التي دعا إليها الكثير من علماء ومفكري ومثقفي الأمة الإسلامية، لكن أينتظر ذلك من أولئك الذين سبق لهم في إحدى قمم الجامعة العربية، التي عقدت في تسعينيات القرن المنصرم، أن أجمعوا على الضعف العربي أمام إسرائيل والعالم الغربي، فإلى متى يستمر هذا الضعف الفوقي الذي تقابلة قوة شعبية تحتية عارمة على وشك الانفجار!

من يحكم من في العالم الإسلامي؟

بين زيف الحكام وصمت العلماء

توطئة

من يحكم من في العالم الإسلامي؟ سؤال عريض وفضفاض لا يمكن أن نجيب عنه رياضيا أي بنعم أو بلا، كل منا قد يجيب عن مضامين هذا السؤال، لكن حسب وعيه وتلمسه للقضية المطروحة. فتكون إجابته رغم حجم محاولته غير كافية وغير شافية، لأن الآخر قد يجيب من زاوية أخرى فينفي بذلك وجهة نظر الأول، ويأتي ثالث فينفي فكرة الثاني الذي نفى فكرة الأول ويقوضها، حتى نجد أنفسنا أمام نفي النفي أو أمام وجهات نظر متعددة، حيث تسارع كل وجهة وتجابه لتثبت صحتها ومشروعيتها وهكذا...

كما أن الإجابة القريبة من الواقعية والصواب، لن تتأتى إلا إذا ما تناولنا الموضوع في شمولية، حيث تتعدد الأبعاد وتختلف الملابسات وتتباين وجهات التفكير، لذلك اخترنا في مقاربتنا هذه الوقوف عند بعض المضامين والمسائل التي تمت بصلة إلى القضية مثل: الدين والسياسة، بعض نماذج الحكم في العالم الإسلامي، حكام العالم الإسلامي والغرب وغير ذلك من التيمات الجانبية والفرعية.

الحكم المتعدد في العالم الإسلامي والخداع السياسي

إن المتتبع لواقع وراهن الأمة العربية والإسلامية يكتشف أن هذا الواقع ينطوي على تناقضات سخيفة ورهيبة لا يقبلها العقل السليم، حيث يتقاطع السياسي مع الديني رغم أن الدين في الإسلام سياسة والسياسة دين، أو بالأحرى أن الإسلام يوفق بين ما هو عقيدي من عبادات وأحكام وأخلاق، وما هو تسييري وقيادي به تدار رحى الحكم والسياسة، فإبان عهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لم

يحدث بتاتا التفريق والمزايلة، بين الدين والسياسة، أو بين الإمامة والحكم، هذا الحدث جاء متأخرا، وبالتحديد أثناء سيادة الدولة الأموية، وظل كذلك حتى يومنا هذا، باستثناء بعض الفترات القصيرة التي حاول فيها البعض الجمع بين الدين والسياسة في إدارة الأمة، وفي المقابل سعى بعض الحكام، سواء عبر التاريخ الإسلامي أو في العصر الحديث هذا المسعى، أي التوفيق بين الجانب الديني والسياسي، لكن على أساس من الخداع السياسي حيث ينصب الحاكم نفسه إماما قسرا، ويجبر الأمة والعلماء على البيعة بشتى الوسائل المادية والمعنوية، رغم أنه لا يستحق أن يكون ذلك الإمام الحاكم، الذي تتوفر فيه تلك الشروط التي تنص عليها الشريعة الإسلامية.

هذا الخداع السياسي الذي يجعل الحاكم نفسه فيه إماما حاكما، بشتى الآليات الإيديولوجية والدعائية والقسرية، يقابله توجه علماني يفرق بين الدين والدولة، والأدبيات والمراجع العلمانية حققت في هذا المجال تراكما معرفيا كبيرا، أسقطت فيه مفاهيمها المستوردة من الغرب على الإنسان والبيئة والعقل الإسلامي، وهو إسقاط تلفيقي وتعسفي بإجماع الكثير من العلماء والمفكرين، هذا ناهيك عن التوجهات التي تزعم أنها ديمقراطية أو ليبرالية، غير أنها في الواقع تخفي وراءها مؤسسات عسكرية دفعت بهؤلاء الزعماء الديمقراطيين المزيفين عن طريق الانقلابات العسكرية إلى سدة الحكم، فهذه الديموقراطيات إذن مجرد واجهات سياسية وإيديولوجية لثكنات عسكرية تقتات على عرق ودماء المستضعفين.

هكذا، نجد أنفسنا أمام تعددية الحكم داخل العالم الإسلامي الحديث؛ من حكم علماني مستورد من الغرب، وتوجه ديموقراطي اشتراكي أو ليبرالي مزيف، وكلاهما ينصب سدا بين الدين والدولة رغم اختلاف المصطلحات والمسميات، وحكم إسلامي؛ إما خداعي

وتلفيقي يستغل الدين وشعاراته، لأجل مصالح سياسية وشخصية، وهذا هو حال العديد من الدول التي تعتبر نفسها إسلامية، وأن حاكمها هو أمير للمؤمنين أو المسلمين أو إمامهم الذي يوفق بين السلطة الدينية والسياسية المطلقتين، وفي أحيان كثيرة يكون من الشجرة النبوية الشريفة. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن بعض نماذج هذا الحكم الخداعي توفق بين أحكام ونصوص الشريعة الإسلامية وبعض القوانين الغربية، وبعضها الآخر يكتفي بالشريعة الإسلامية وحدها، وفي هذا الإطار تقف كل من السعودية وإيران على طرفي نقيض؛ حيث الأولى سنية تطبق الشريعة الإسلامية من منطلقاتها السنية، والثانية شيعية تنفذ أحكام الشريعة في أبعادها الشيعية. والغريب في الأمر أن الشقة بين هذين التوجهين تظل متباعدة وشاسعة، رغم أن كلا الدولتين تعتبر نفسها دينية إسلامية ذات قانون مبني على أحكام الشريعة الإسلامية. أما الحكم الإسلامي الثاني فهو حكم إسلامي حقيقي تلاشى بتلاشي الخلافة الإسلامية، ولم يتحقق بعدها إلا بدرجة نسبية و في فترات تاريخية خاطفة، كالتي حكم فيها الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وسوف يتحقق بحول الله وقوته -كما يبشرنا الرسول صلى الله عليه وسلم- في المستقبل بعد عودة الخلافة على منهج النبوة.

قد يقول قائل ربما هذه الخلافة قد تحققت أو أنها تتحقق في هذا الزمان، والإجابة عن ذلك تتجسد فيما يجري حاليا في واقع المسلمين، فلنتأمل جميع نماذج الحكم السائدة في العالم الإسلامي، من مغربه إلى مشرقه ومن شماله إلى جنوبه، ثم لنستخلص مميزاتها العقيدية والأخلاقية والتعاملية وما إلى ذلك، ثم لنقارنها بما كان سائدا، سواء أثناء مرحلة الرسول صلى الله عليه وسلم أو إبان

فترة الخلفاء الراشدين؛ أين رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} الأنبياء107، وسجون العالم الإسلامي ملأى على آخرها، حيث يموت السجناء جوعا، وتمارس أشنع السلوكات المنحرفة من لواط وتعذيب وتعسف وإدمان مخدرات وخمور، فعوض ما يعلم السجناء قيم الإسلام ومكارم الأخلاق ومختلف المهن النافعة للعباد والبلاد، يعلمون كيف يمتهنون الإجرام والسرقة المنظمة ونحو ذلك؛ أين نحن من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي طلب من سجناء بدر المشركين المعتدين أن يفتدوا حياتهم وحريتهم بتعليم الأميين من المسلمين؟ أين ورع وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي وهب كل ما يملك حتى نفسه لنصرة الإسلام، وهو الغني الذي ورث الغنى، ولم يصنعه بدماء الأبرياء، ولم يشيده على أنقاض بني البشر؟ أين كل هذا السخاء الذي لا نقل عادَل، وإنما ضاهى إيمان الأمة كلها، وحكامنا وأمراؤنا وملوكنا ورؤساؤنا وكل من تشتم منهم رائحة الحكم الجبري، يملكون حسابات بنكية ضخمة وثروات لا تحصى، والشعوب تموت فقرا وجهلا وجورا، بل وملايين المسلمين يغادرون بلدانهم وهوياتهم نحو بلاد الأعداء/الرحماء حيث يتلقون بسخاء ما منعوه في أوطانهم؟ أين عدالة عمر رضي الله عنه، والأرض تنبت ظلما وجورا وقهرا، والحاكمون يتلهون بألعابهم السياسية وبالجواري والخمور الفرنسية، والشعوب تطحن بين فكي رحى الاستعباد الفكري والجسدي والغلاء المعيشي والجوع؛ لو أن عمرا ينهض من قبره ماذا سيكون فعله بهؤلاء الذين يستحمرون (من الحمار) الشعوب ويسترققونهم (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟) أين عفة وعفاف عثمان رضي الله عنه؟ أين شهامة وبسالة علي رضي الله عنه؟ أين..؟

بين زيف الحكام وصمت العلماء!

بعد هذه اللمحات المقتضبة أود أن اقف عند نموذج واحد للحكم الإسلامي، يعتبر نفسه عاكسا للشريعة الإسلامية ومنفذا لأحكامها وقوانينها، هذا النموذج يتحدد في المملكة السعودية التي تمثل عند الكثيرين، سواء من المسلمين أم من الغربيين نموذج الدولة الإسلامية الحقيقي؛ هل نمذجة المملكة السعودية وتمثيلها الإسلام المنشود إذن تتم على الوجهة الصحيحة والطريقة المثلى؟ هل إسلام المملكة السعودية هو ذلك الإسلام الأصح والحقيقي، الذي يجب أن يتبع وينشر ويعمم في كل العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وإن كان الأمر كذلك، فما هو موقع الحكم داخل هذا الإسلام، بمعنى هل ثمة تزاوج وتضافر بين الدين والدولة، بين الإمامة والسياسة، أم أن الدين هو شأن من شؤون العلماء الذين يتسترون وراء كواليس البلاط، ولا يفتون إلا بما يتجاوب وسمفونية القصر، إن سمح لهم بالإفتاء في غير العبادات من تيمم وحيض و حج ونحو ذلك، وغير المعاملات من إرث وزواج وطلاق(وهل يسمح للمرأة بسياقة السيارة أم لا؟!). وأن السياسة هاجس من هواجس الحكام الذين يسوسون بالشريعة الإسلامية وأحكامها، لكن حسب هواهم ونوازعهم الذاتية، فيطبقون الحدود والقصاص على المقهورين من سواد الأمة، وأصحاب الجاه يصولون ويجولون بطائراتهم الشخصية، ويعيثون فسادا في البلاد الإسلامية الفقيرة، مقترفين أفظع وأبشع الممارسات التي لا تمت بصلة إلى الإسلام، والتي إن يقترفها واحد من عامة الشعب داخل بلدهم، يرسل مباشرة نحو حبل المشنقة؟ أهذا هو الإسلام الذي جاء به النبي الأشرف عليه الصلاة والسلام؟ أهذه هي الدولة الإسلامية التي تقمع المستضعفين وتخادع الغربيين بشعاراتها الرنانة الساطعة، وهم يعلمون أن الكثير من أغنيائها (السعودية) وأغنياء العالم الإسلامي، لا ينفكون يترنحون

في أرفع كباريهات وحانات العواصم الغربية، ويقامرون في أبهى كازينوهات الغرب، ويتباهون بأسحر ملكات جمال الدنيا، والقدس تغتصب على مرأى من القيادات الإسلامية المهزومة والمرتكسة، وفلسطين تباد، والعراق يحترق، ناهيك عن الشعوب الإسلامية المطحونة تحت أحذية رجال الأمن والجنود والاستخبارات؟

أين هو صوت العلماء (خصوصا أولئك الموالين والمتعاطفين مع الحكام) الذين يطلون علينا صباح مساء عبر القنوات، وهم يلقنون لنا كيف نتوضأ، والصلاة تمنع في القدس وغيره من المساجد، ويعلموننا كيف نقسم التركة، واليهود يقتسمون تركة صلاح الدين الأيوبي، والأمريكان يوزعون نفط ونعم العراق والجزيرة العربية؟

أين هم أولو الحل والعقد وأرض الجزيرة، حيث مهبط الرسالة الإسلامية والحرمين الشريفين، مشرعة ومفتوحة للجنود الأمريكيين، كأن المسلمين ليسوا أهلا للأمانة والقوة؟ كيف يصبح عدو دينك حاميك ويصير أخوك في الدين عدوك اللدود؟ والله إنها لمفارقات عجيبة ومستعصية على الفهم والاستيعاب، والله ما عرف أبدا تاريخ الإسلام مثل هؤلاء الرجال الذين يفتدون بشعوبهم وهويتهم من أجل إرضاء الغرب، فإن كان الإسلام يسمي الذي يقدم زوجه أو ابنته أو أخته أو غير ذلك للأجنبي من أجل البغاء ديوثا، فماذا يسمي مثل هؤلاء الذين يرهنون شعوبا بأكملها؟؟؟

ليس المراد من تدبيج هذا الكلام هجاء الآخرين وشتمهم، وإنما رفع الغطاء عن تلك التناقضات والمفارقات الرهيبة التي يشهدها العالم الإسلامي، والتي يعتبرها الكثيرون من أولي الأمر والنهي والسياسة والعلم عادية، وهم يعلمون أن يوما ما سوف يسألهم مالك الملك عن هذا الاستهتار والسكوت عن قول الحق والساكت عن الحقيقة(شيطان أخرس)، وقصة جبريل عليه السلام الذي أرسله الله تعالى لتدمير تلك القرية الظالم أهلها، فتراجع عن ذلك الفعل لكون أن من

بين أهلها عالم، فأمره الله عز وجل بأن يبدأ بذلك العالم. متى يتعظ علماؤنا من هذه العبر النبوية الشريفة؟ أليس بإمكانهم أن يقولوا كل شيء ويكشفوا عن كل شيء في زمن انفتاح الإعلام وتعدده؟ ماذا يمنعهم من ذلك؛ أستفادتهم من جود ونعماء البلاط، أم خوفهم من بطش الحاكم، أم ميولهم الفكرية والذاتية، التي ترى الاستقرار تحت مظلة حاكم عاص وظالم خير من البلبلة والفوضى تحت سيادة حاكم عادل، ولكن إلى متى هذا الاستقرار المزيف الذي يخدم كراسي الحاكمين ونزواتهم؟ ألا يتدبرون في نعماء الله تعالى التي لا توازنها نعماء؟ ألا يرهبهم بطش ربهم(إن بطش ربك لشديد)؟ ألا يطوعون أفكارهم ويطعمونها بنكهة التغيير الإيجابي لا الركود والاستقرار السلبي، علما بأن التغيير سنة إلهية في الوجود، وأن التغيير أسلوب ومصطلح قرآني مميز(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله سوءا بقوم فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) الرعد 11؟

خلاصة القول،

إن هذه الكلمات الصاعدة من قلب جريح لتميط اللثام عن جانب من الحقيقة المؤلمة التي تصدم كل فكر شريف، يدرك قيمة ووزن هذه الأمانة التي حملها لنا ربنا الكريم، لما أبت الكائنات الأخرى حملها، تلك الحقيقة التي يعلمها الكل، لكن فتنة الدنيا وزخرف الحياة تمغنط أفكارنا وأهواءنا ومشاعرنا فننسى (فلما نسوا ما ذكروا به) الأنعام 44 (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) الأعراف 51 . لكن والحمد لله ما دام فينا من يظل يذكرنا (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) الذاريات 55 من علماء ودعاة شرفاء يضحون بالنفس والنفيس من أجل نصرة الإسلام والمسلمين، فلولا تضحياتهم الجسام لكان حال الإسلام أسوأ مما هو عليه الآن.

على هذا النحو، أريد أن أضع كلماتي حتى تكون تذكرة لكل من يقرأها، فتكون بذلك شاهدة على أن هذا العبد الفقير إلى ربه تشجع يوما ما، فألقى هذه الكلمات المريرة موجها إياها إلى أولئك المحسوبين على الإسلام، وهو بريء منهم براءة الذئب من قميص ابن يعقوب عليهما السلام، أولئك الذين يخادعون شعوبهم بالسبحة واللباس التقليدي وحضور صلاة الجمعة، هذه الشعوب التي تظل رغم أنفهم واحدة وموحدة في عقيدتها ومعاناتها ومصيرها، تشكل أخوة متماسكة كالبنيان المرصوص يجمعها دين واحد هو الإسلام، رغم أن قادتها وحكامها الذين لم تصوت عليهم، ولم تخترهم يظلون مشتتون في أفكارهم وطموحاتهم. لذلك فأنا عندما أتحدث عن السعودية أو غيرها من دول العالم الإسلامي، فلا أقصد بذلك إلا ذلك الجانب السياسي والسيادي حيث لا يعكس ما هو ديني إلا في العقوبات والحدود والقصاص، أما تفعيل العلاقات سواء العمودية مع كافة أفراد الشعب أو الأفقية مع جميع المسلمين لا يتم إلا على أساس المجاملة والمماحكة، في حين يظل العدو هو المستفيد الوحيد من ثروات الأمة واستثماراتها. خصوصا وأن هذا الشق من الأمة الإسلامية/السعودية بإمكانه أن يلعب دورا رياديا في نهضة العالم الإسلامي لامتلاكه أسباب هذه النهضة سواء المعنوية والرمزية (مهبط الرسالة المحمدية الشريفة، الحرمين، استجابة الشعب لأحكام الشريعة الإسلامية، العلاقات الرفيعة مع العالم الإسلامي وغير ذلك) أو المادية والاقتصادية (الثروات النفطية الضخمة، البنية التحتية المتطورة، إمكانية الاستثمار، كثرة الأغنياء والمحسنين ونحو ذلك).

الإصلاح السياسي لا يتأتى إلا بالوعي الديموقراطي[1]

س- هل إن الضغوط الخارجية قادرة على إقامة أنظمة ديمقراطية في العالم العربي، وهل يمكن أن يعد المشروع الأمريكي في العراق من دعائم إقامة الأنظمة الديمقراطية خصوصا وأن إحدى نتائجه كانت كتابة دستور يؤسس لإقامة دولة دينية وحكم رجال الدين؟

ج- أعتقد أن الديمقراطية باعتبارها نظاما عادلا، يسعى إلى إقرار المساواة التامة في الحقوق والواجبات بين سائر شرائح المجتمع، ليست قارورة عطر أو برميل نفط أو طائرة أو..! يمكن استيرادها من الخارج، لما يحتاجها الداخل، وإنما هي سلوك ينبع من الذات ومن الداخل، وثقافة تنمو في الفرد وفي المجتمع، مما يجعلنا نعتبرها مكونا ذاتيا ثابتا، لا تقل جدواها عن الهوية والعقيدة واللغة وغير ذلك، إلا أننا جبلنا على التسليم المطلق بأن الديمقراطية باعتبارها نظاما عادلا، صناعة غربية حديثة، غير أن الحقيقة ليست كذلك، فالديمقراطية من حيث توخيها المساواة والعدالة ومنح الجميع حقوقهم المختلفة، هي نتاج إنساني لم تخل منه أي حقبة تاريخية، أما الديموقراطية من حيث تركيبتها المؤسساتية والقانونية فهي كذلك ليست صنيعا غربيا مائة بالمائة، بقدرما هي عصارة تجارب إنسانية متنوعة.

على هذا الأساس النظري، إن التأسيس لنظام ديمقراطي متين لن يتم إلا باكتساب سائر مكونات الشعب للوعي اللازم الذي يؤهلها

---

[1] حوار خاص بملف شبكة الحوار المتمدن حول الديمقراطية والاصلاح السياسي في العالم العربي/عدد 15 - 10 (أكتوبر) - 2005

إلى أن تفكر وتتصرف بمنطق يخضع لمقياس الديمقراطية، فكرا ومنهجا، حقوقا وواجبات، أما أن تظل الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية والإسلامية والثالثية تتخبط في مستنقع الجهل والشعوذة والاضطهاد والصراعات الأهلية، ثم نتحدث عن مشروع ديمقراطي يأتي من الخارج، عن طواعية أو تحت الضغط، وما مدى نجاح إنزاله إلى واقع الأمر، فهذا ضرب من الوهم واللاواقعية، لأن هذه الشعوب المغلوبة على أمرها لا تفكر إلا بما تملك من إمكانات مادية ومعرفية، ومادام أنها لا تملك أصلا أي إمكانات، أو أنها نادرا ما تستفيد من إمكانات هزيلة، فالنتيجة المنطقية لذلك، أنها لن تستجيب لأي ديمقراطية أو إصلاح أو نهضة مستوردة من الخارج، ففاقد الشئ لا يعطيه! ثم وإن سلمنا جدلا بأن هناك فئات اجتماعية مؤهلة لأن تتقبل أي مشروع ديمقراطي، فهل سينجح ذلك تحت نير الأنظمة المستبدة التي تمزق كيان العالم العربي والإسلامي؟ بالطبع، لا!

لذلك نخلص إلى أن الضغوط الخارجية غير قادرة على إقامة أنظمة ديمقراطية في العالم العربي أو الإسلامي، فالمشروع الأمريكي في العراق، في حقيقة الأمر، هو مسخ للديمقراطية الغربية الحديثة، فلن يأتي بأي نتيجة مرضية، مادام بعد كل يوم جديد يزداد حجم رفض أغلب مكونات الشعب له، من هنا فلن تقام أنظمة ديمقراطية بالعالم العربي والإسلامي إلا بتحقيق أحد أمرين؛ إما تنازل الأنظمة عن غطرستها، وإشراك باقي فعاليات الشعب في العملية السياسية، وإما توعية الشعوب الحقيقية التي تجعلها في مستوى يؤهلها إلى التفكير في أمور كالنهضة والتغيير ونيل الحقوق وغير ذلك.

س- كيف تنظر قوى اليسار والتحرر الى ادعاءات الديمقراطية والإصلاح السياسي، وكيف يمكنها أن تديم برامجها السياسية والاجتماعية، خصوصا تلك المتعلقة باقامة دولة العدالة الاجتماعية والمساواة والرفاه، في ظل الواقع الذي يحدثه صراع الأنظمة الحاكمة مع دعوات الإصلاح والتغيير الخارجية؟

ج- في الحقيقة، أنا لست يساريا من حيث التوجه الفكري أو الأيديولوجي، ولكن تفكيري يتجاوب كثيرا مع مجموعات من الطروح اليسارية، التي أرى أنها، مبدئيا، تعبر بحق عن طموح ورغبة الطبقة التحتية، فهي تناضل على جبهتين: ففي الأولى تواجه فيها الطغمة الحاكمة، فاضحة استبدادها المقيت، وفي الثانية تنزل إلى أرض الواقع، لتتحدث بلسان حال الشعب، غير أن هذه الطروح سرعان ما تفقد مصداقيتها النضالية، بمجرد ما تتمكن القوى اليسارية من زمام الأمور، وخير مثال حي على ذلك، تجربة بعض ممثلي اليسار المغربي الذين امتد نضالهم ضد السلطة أكثر من نصف قرن، وفي آخر المطاف سلموا ثمار كفاحهم الطويل على طبق من ذهب إلى القصر!

من هذا المنطلق، فالخلل لا يكمن في الفكر اليساري، وإنما في الكيفية التي يتم بها تعميمه وتنفيذه، وهي كيفية غالبا ما تنطلق من مبدأ نفي الآخر، وهي لا تعي بأن ذلك الآخر، كيفما كان، أساسي في اكتمال المعادلة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وإلا فإننا بنفيه سوف نفتح الباب على مصراعيه أمام الفكر الأحادي، الذي يختزل الوجود والحياة في بعد واحد!

إن سائر القوى السياسية اليسارية وغير اليسارية داخل العالم العربي والإسلامي، المحرومة من حقها القانوني في تمثيل الشعب

وخدمته، تجد نفسها اليوم تستنفد كل إمكاناتها في المحاربة على واجهات مختلفة، ومن دون نتائج ملموسة ترضي المواطن العادي، لذلك فهي مدعوة إلى التكتل الذاتي الداخلي، الذي يتخذ منحيين؛ أولهما توحيدي لكل أصوات وتوجهات اليسار نفسه، حتى تجتث كل جذور التشاقق التي تطفو على السطح، من فينة لأخرى، بين مكونات وقوى اليسار، وثانيهما تشاركي بين شتى التنظيمات والأحزاب السياسية التي تختلف مع التيارات اليسارية فكرا وتنظيما، لكنها كثيرا ما تأتلف معها قصدا ونضالا، لأنها كلها تتجانس من حيث رؤيتها الرافضة للطاغوت والاستبداد والانفراد بالحكم وغير ذلك، فبمجرد ما ينال اليسار ولو حظا بسيطا من ذلك التكتل الذاتي، يتمهد له الطريق اللاحب نحو تثبيت جانب من مقومات فكره السياسية والنضالية والتنظيمية، أما أن نظل جميعنا متقوقعين على الأيديولوجية التي يؤمن بها، فهذا يعني تمكين الأنظمة الفاسدة والمتعفنة من الصيرورة في مواقع حكمها.

س- هل إن وجود نظام ديمقراطي يمكنه أن يحدث تغيرات عميقة في بنية التخلف الاجتماعي والثقافي والسياسي، الذي تعاني منه الدول العربية، وهل يفسح المجال أمام الارتقاء بحقوق الانسان، وأن يشيع مظاهر الرفاهية والتمدن ويحقق العدالة الاجتماعية؟

ج- هذا ممكن، بشرط أن يكون النظام الديموقراطي نابعا من وعي الشعوب واستجابتها الجادة والواقعية إلى ذلك، لأنه عن طريق وعي الشعوب الكافي بحقوقها وواجباتها، تتولد إليها الرغبة في تحصين وضعيتها الاجتماعية قانونيا ومعرفيا، فيكون من نتائج ذلك التحصين، حدوث التغيرات التلقائية على سائر الأصعدة الاجتماعية والثقافية والسياسية، فيتقلص حجم الجهل الذي ينيخ بكلكله على جسد المجتمع، فيرجع عقرب التخلف القهقرى، آنئذ نتمكن من

معاينة تهاليل وأمارات العدالة والمدنية والرفاهية وهي تعترى قسمات الإنسان العربي والمسلم والجنوبي، وتزحف على سائر أنحاء البيئة التي يوجد فيها.

س- كيف يمكن التعامل مع التيارات الإسلامية التي يمكنها أن تصل الى الحكم من خلال صناديق الاقتراع؟

ج- لقد أشرت سابقا إلى مسألة التكتل الذاتي، أولا بين التيارات اليسارية نفسها، وثانيا بين التيارات الأخرى التي تقتسم معها المجال السياسي الذي تنتمي إليه، علمانية كانت أو إسلامية أو محايدة، وهذا هو عين الواقعية السياسية، لأنه إذا بقي بعض التيار اليساري يفتح على نفسه شتى جبهات التناحر الأيديولوجي مع الآخرين، سلطة كانوا أو إسلاميين أو غيرهما، فهذا يعني أنه يعزل نفسه عن الواقع الذي ينخرط فيه، فإذا ما افترضنا أن الإسلاميين وصلوا عن طريق الانتخابات إلى سدة الحكم، والخصومة بينهم وبين اليساريين على أشدها، فإن اليسار سيتعرض لا محالة للإقصاء والتهميش، أما إذا كانت العلاقة فيما بينهما متوازنة، ومبنية على الشراكة الواعية في جملة من القضايا النضالية والسياسية، فهذا سوف يؤدي، مما لا شك فيه، إلى تقوية شوكة المعارضة ضد النظام، وكلما تقوت تلك الشوكة، كلما مس السلطة الهزال والارتجاج.

س- كلما تم الحديث عن إحداث الإصلاح السياسي في العالم العربي، فإن الانظمة الحاكمة تسارع لطرح خصوصية كل مجتمع، أو أنها تطرح الإصلاح السياسي التدريجي، هل إن الحديث عن الخصوصية والإصلاح السياسي التدريجي يمتلك أرضية واقعية؟

ج- أصبحت هذه الظاهرة بمثابة (موضة!) الأنظمة الحاكمة في العالم العربي والإسلامي، التي تقتات على سرقة الأفكار السياسية الجميلة والجذابة وتبنيها، لذلك نستجلي أنه كلما طرحت فكرة ما من قبل تيار معين، أو مثقف معروف، إلا وسارعت الأنظمة إلى سرقة تلك الفكرة، وتقديمها على مقاس فهمها (المخزني) والبوليسي إلى شعوبها، على أن قطار الإصلاح قد بدأ، وأن الديمقراطية سوف تعم بخيرها الجميع، وأن التعليم سوف يدخل كل بيت أمي، إلى آخر ذلك من الشعارات الرنانة، ثم إنها لا تنسى أبدا ربط تلك الأفكار بالسياق المكاني والزماني، عندما تضع في الحسبان طبيعة المجتمع الذي تجرى له عملية الإصلاح، فترى أن تلك العملية لن تنجح، إلا بالأداء التدريجي لمخططها الخماسي أو السداسي، وفي نيتها العميقة أن ذلك المخطط لن يستمر خمسة أو ستة أعوام، كما يتبادر إلى أذهان العوام والمثقفين، وإنما سوف يستغرق خمسة أو ستة عقود، وهذا ما حصل بالتأكيد، لدى أغلب تجارب الأنظمة العربية.

ثم إن مسارعة الأنظمة الحاكمة، في الظرفية الراهنة، إلى تبني أفكار الإصلاح السياسي، لا يكون إلا تحت تأثيرات داخلية وخارجية، تنشأ من حين لآخر، وهي تأثيرات تخشى من أن تكون لها عواقب غير محمودة عليها، لذلك نراها، من جهة أولى، تجتهد في إطلاق مختلف مبادرات الإصلاح، ساعية بذلك إلى امتصاص تذمر شرائح المجتمع التي أضناها انتظار الإصلاح الذي يأتي ولا يأتي، ومن جهة أخرى ترمي بذلك إلى إقناع العالم الغربي بأنها على جادة الصواب، وأن الإصلاح مستمر في المجتمعات التي تحكمها، إلا أن ذلك لن يتأتى إلا بالتدرج ومراعاة خصوصية كل مجتمع مجتمع!

حول جذور الإرهاب والفساد وأفاق التغيير في العالم العربي[1]

*** عرف الإرهاب من منظورك الشخصي؟**

ليس بالإمكان صياغة تحديد أو فهم شخصي لكلمة الإرهاب، بقدرما يمكن تقديم انطباع شخصي حول هذه الكلمة، وهو انطباع يجعلني أفهم أنها تحمل معاني التخويف أو إحداث الخوف في نفسية الآخر/الخصم، لكن هذا الفهم الأولي يظل منقوصا أو مؤدلجا (من الأيديولوجيا)، اعتبارا بأن مصطلح الإرهاب بمفهومه المعاصر، مستورد من الغرب، ومحبوك وفق الرؤية الغربية غير البريئة، أما في الثقافة العربية والإسلامية، فكانت تستعمل مصطلحات بديلة كالغلو والتزمت والتشدد والتمامية وغيرها، حقا إن القرآن الكريم كان له السبق في استعمال هذا المصطلح، حيث قال الله سبحانه وتعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوكم)، لكن رغم ذلك ظل مقترنا بحالات القتال ولحظات الحرب، في حين صار هذا المصطلح في راهننا يشكل مكونا هاما من حياة وذات وتفكير الفرد داخل المجتمع.

*** هل لك أن تعطينا مثالا ملموسا وحقيقيا عن الإرهاب؟**

أعتقد أن أهم مثال على الإطلاق عن إرهاب ملموس وحقيقي، هو الإرهاب الإسرائيلي داخل الأراضي الفلسطينية، ويليه الإرهاب الأمريكي داخل العراق، أما الإرهابات التي مورست في بعض الدول الغربية، فهي ردود فعل عادية ومنطقية للإرهاب الحقيقي! هذا لا يعني أنني أؤيدها، وإنما يعني أنه إن لم يكن ثمة إرهاب

---

[1] حوار قد أجرته منظمة كتاب بلا حدود مع مجموعة من الكتاب والمثقفين، وهو خاص بكتاب كانت تنوي إصداره.

إسرائيلي أو امريكي أو غربي داخل العالم الإسلامي، لمـــا رأى العالم الطائرات المدنية الأمريكية تعود إلى عقر دارها مهاجمة، وكأنما انقلب السحر الأمريكي على ساحره!

*** هل تذكر لنا ما أسباب البطالة المتفاقمة في العالم العربي من وجهة نظرك؟**

ببساطة، إن تفشي ظاهرة البطالة داخل العالم العربي والإسلامي، فأنا أوظف هنا كلمة ظاهرة لأن البطالة أمر طارئ، أو مشـــكل مؤقت يمكن تفاديه كلما توفرت الحلول الملائمة لذلك، أقـــول إن تفشي هذه الظاهرة يعود بالدرجة الأولى، إلـــى وجـــود طغمـــة سياسية تحتكر الوطن بكل ما فوقه وما فيـــه، وتســـوده بـــالجور واللامساواة والتهميش واحتكار المال العام وغير ذلـــك، فكيـــف للبطالة أن لا تتفاقم، وقد أسكتت قطارات التنمية وعطلت عجلات الإصلاح إلى الأبد، وأطفئت أنوار النهضة، فساد ظـــلام الجهـــل والانحطاط الدامس! فالوطن قسمة بين كل المـــواطنين المنتمـــين إليه، أما أن يصير مملوكا لدى أسرة وارثة واحدة، أو مختلسا من شرذمة تمتهن حرفة الانقلاب، فهذا يعني أن باقي أفراد الشعب لا وجود لهم إلا بالقوة، وهذا الوجود الطوباوي ليس من شأنه إلا أن يولد أوباء اجتماعية واقتصادية خطيرة، والبطالة أقلها خطورة!

*** هل لديك مقترحات وتوصيات بخصوص حل هذه المشكلة؟**

في اعتقادي إن حل ظاهرة البطالة، توجد مفاتيحه في يد الحكـــام والأنظمة، فالمقترحات والتوصيات التي يدلى بها في هذا الأمر، لا تغني ولا تسمن من جوع، لأن أولئك الحكام وتلـــك الأنظمـــة مطلعون على كل ذلك، ويملكون كل وسائل الحلـــول، لكـــنهم لا يريدون نهضة للأمة، ففي النهضة موتهم، وفي استفاقة الشعوب

انتهاؤهم، فهم يدعون الأمور على شاكلتها، لأنه كلما استمر جهل الأمة وسباتها، كلما استمر وجودهم على الكراسي!

*** ما هي أهم المشاكل الناتجة عن البطالة من وجهة نظرك الخاصة؟**

إن أهم ما ينتج عن البطالة ليس تصاعد وتيرة الفقر وهجرة العباد وانسياق شرائح من المجتمع إلى الغلو والتطرف، فهذه لعمري مظاهر جد بسيطة من مخلفات ظاهرة البطالة، أما أخطر ما يمكن أن يترتب عن هذه الظاهرة، هو تخلف الأمة العربية والإسلامية، المستمر عقودا وأجيالا وقرونا، عن ركب الأمم المتقدمة، مما يخرجها من دائرة التاريخ الحضاري للإنسان، كما خرجت أمم كثيرة فبادت بعد أن سادت، وهذا ما ينبغي أن تتنبأ إليه الصفوة من مكونات المجتمع الإسلامي، لأن حاجة الجسد من شراب وطعام وشهوة قد تعوض، أما حاجة العقل من علم ومعرفة وفكر فلا تعوض، وإنما تكتسب بتراكم الإنتاج الثقافي والحضاري للأمة، فشتان بين ما يعوض في حاله، وما يكتسب عبر مراحل تاريخية لا توزن حتى بالذهب.

*** ما هي نظرتك إلى التيارات الإسلامية في المنطقة العربية؟**

أرى في التيارات الإسلامية داخل المنطقة العربية والإسلامية إغناء سياسيا وثقافيا ودينيا للمجتمع الإسلامي، فحضورها داخل العالم العربي والإسلامي ضروري ولازم، لأن أولا شعوب المنطقة مسلمة، فهي محتاجة إلى ممثلين سياسيين ونيابيين يفهمون لغتها التي هي الدين الإسلامي، لأنه بفهمهم للغة المنتخبين الذين صوتوا لصالحهم، سوف يفهمون ويدركون لا محالة احتياجاتهم السياسية والاقتصادية والثقافية وغير ذلك، فأنا باعتباري مواطنا مسلما، لا أنتظر من علماني ينحدر من فكر لا يمت بصلة إلى هويتي ورؤيتي، أو من ماركسي ينتمي إلى

منظومة أيديولوجية مغايرة لما أومن به، ان يمثلانني خير تمثيل، ثم لماذا ننظر إلى التيارات الدينية السائدة في الغرب نظرة عادية، وعندما نتناول تياراتنا الدينية نصاب بالاستغراب والتوجس والحيطة.

*** هل ترى إنها قادرة على لعب دور استراتيجي بالمنطقة؟**

لما لا؟! فلتمنح لها الفرصة، ولنرى النتائج بأم أعيننا، وعندنا في تجربة الإسلاميين بالمغرب خير مثال، فلتزر المدن التي يسيرونها حيث تكتشف بعض تجليات التغيير، على مستوى نظافة المدن، ومساعدة المواطنين لقضاء أمورهم الإدارية، هذا ناهيك عن تجربة إسلاميي تركيا الذين دوخوا باعتدالهم أوروبا المسيحية!

*** أي التيارات التالية تؤيدها : التيار السني (الوهابي).. أم التيار الشيعي ..أم حركة الإخوان المسلمين؟**

أنا لا أؤيد تيارا معينا، بقدرما أؤيد كل من يخدم المواطن المسلم البسيط، كما كان يخدم خليفة المسلمين العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رعيته، أما من يسبب الضرر للإسلام والإنسانية، فإلى الجحيم!

*** لماذا اخترت هذا التيار؟**

لم أختر تيارا معينا، فأنا معتدل في تفكيري حتى النخاع، لذلك فانا أختار كل من ديدنه الاعتدال والوسطية.

*** هل تعتقد أن هناك فسادا مستشريا بالمنطقة العربية؟**

هذا أمر لا غبار عليه، لذلك فأنا وغيري من المثقفين والمواطنين العاديين هنا، بالمهجر، فبمجرد ما يتعافى الوطن، وتعود له الصحة الكاملة، لن تجدنا في المهجر إلا سياحا أو مستثمرين أو طالبي علم.

*** هل سيؤثر الفساد والتزوير والواسطة على المستقبل السياسي بالمنطقة؟ كيف تشرح لنا ذلك؟**

لقد سبق للقرآن الكريم وأن تحدث عن هذا الجانب من فساد العباد والبلاد، والفساد مصطلح قرآني جامع، حيث يشير الله عز وجل في سورة النمل إلى " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة " آية 34، ويقول في سورة الإسراء: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً" الإسراء، آية 16، وهذا ما يحصل الآن، للمنطقة العربية والإسلامية التي سوف تهلك ليس فقط، بالدبابات الأمريكية، أو بالصواريخ الإسرائيلية الحاملة للرؤوس النووية والمصوبة إلى كل العواصم العربية، وإنما سوف تهلك ذاتيا بالفساد الذي يستشري فيها طولا وعرضا، وما هذه الوضعية الحرجة التي تذكرنا بالحملة الماغولية أو الحروب الصليبية، إلا جزاء من الله تعالى لنا على الفساد الذي انغمسنا فيه، لذلك فالمستقبل يعد بتغير جذري لخارطة العالم العربي والإسلامي، إذا ما بقيت الأمة على حالها، ولكن إذا ما استفاقت وغيرت ما في نفسها فإن المستقبل سوف يتخذ منحى آخر.

*** هل تعطينا أمثلة ملموسة وحقيقية عن الفساد في المنطقة العربية؟**

الفساد في المنطقة العربية يتخذ أشكالا متنوعة، فهو يبدأ من الفوق حيث يتفشى فساد الحكم، ويتدرج عبر الفساد الإداري والتعليمي والاقتصادي والأخلاقي حتي يصل إلى التحت حيث فساد الشعب، الذي ما هو إلا انعكاس حقيقي للحالة التي عليها البنية الفوقية، وضمن هذه الفسادات تستشري أشكال مختلفة من الانحرافات الأخلاقية والمالية والاجتماعية وغيرها، كالمخدرات والاغتصابات والتزوير والمحسوبية والسرقة المنظمة وما إلى ذلك.

*** ما هي نظرتك الحالية إلى الشباب العربي من ناحية الانحراف والتطرف والفساد؟**

إن حالة الشباب العربي الراهنة من الانحراف والتطرف والفساد، هي نتيجة منطقية لمجتمع مريض، ومادام أن هذا الشباب ابن تربته أو بيأته المريضة، فمن العادي أن يتأثر بها، ويندرج في فضائها الموبوء بشتى الفيروسات والأمراض.

*** ما هي الأسباب في نظرك التي أدت الشباب إلى الوصول إلى هذه المرحلة؟**

نفس الأسباب التي جرت المجتمع الإسلامي والعربي إلى مستنقع الفساد، جرت كذلك شباب ذلك المجتمع إلى ما هو عليه من انحراف، ورأس هذه الأسباب هي الطغمة الحاكمة، التي خططت لأن يكون هذا المجتمع على هذه الحالة، فكان الشباب أول من بدا عليه أثر هذه الحالة الفاسدة، لأنه ذو طبع حساس، سرعان ما يندفع نحو ذلك المستنقع، ثم لا ننسى صمت العديد من العلماء المطبق، الذين لا يرف لهم جفن للفساد الذي ينخر جسد الأمة.

*** ما نظرتك لحرية الصحافة واستقلالية القضاء ومؤسسات المجتمع المدني بالمنطقة العربية؟**

هذه أمور لا تعدو أن تكون في العالم الإسلامي إلا أضغاث أحلام، يؤمن بها بعض المناضلين، الذين يطلّقونها بمجرد ما تعطف عليهم الأنظمة بمناصب رسمية، يخبو معها صوتهم الذي دوى طوال عقود من النضال، فيصبح ما يشبه نقيق الضفادع! فحرية الصحافة واستقلالية القضاء ومؤسسات المجتمع المدني، ماهي إلا حكايات يرويها السياسيون العرب، لزوارهم السياسيين والإعلاميين الغربيين، كما تحكي الجدات قصص الغول وعلاء الدين والمصباح الذهبي لأحفادهن!

*** ما هو في رأيك الحل لتفعيل كل ذلك؟**

الحل الأول والأخير في اعتقادي، هو تنازل الحكام والأنظمة عن جشعها السياسي والاقتصادي، واعتبار الوطن ملكا لكل المواطنين من غير استثناء، أما ما عدا ذلك سواء من الشــعارات الرنانــة والوعود المعسولة، أو من التدخلات الأجنبية، فما أصبح يجلــب ثقة الشعوب العربية والإسلامية، التي ربما ستشق لها طريقا ثالثا، وهي تردد بيت المتنبي المشهور:

لا يرقى الشرف الرفيع ////حتى يراق على جوانبه الدم

حيث نشتم الآن، من انتفاضة المثقفين بمصر، ما يشبه تلك الرغبة الدفينة التواقة إلى التغيير، لكن هل وعي هذه الشــعوب الحــالي كاف لشق هذا الطريق؟

*** هل تعتقد أن الوطن العربي مقبل على تقسيمه من قبل أطراف خارجية؟**

أجل!!!

*** هل تعتقد أن ساعة الصفر في الشرق الأوسط قد اقتربت؟**

لا، فالوضعية الحالية لهذه المنطقة تشير إلى أنها ترجع القهقرى، فهي بذلك تبتعد عن ساعة الصفر، ربما لتقوم بدورة كاملة حتى تصل إلى الصفر!

*** متى برأيك تنطلق ساعة الصفر للإعلان الحقيقي عن الإصلاح والحرية والتغيير في العالم العربي ؟ وكيف يمكن ذلك ؟**

سوف تنطلق ساعة الصفر للإعــلان الحقيقــي عــن الإصــلاح والحرية والتغيير في العالم العربي، إذا ما تم تحقيق أحد الأمرين؛ إما تنازل الأنظمة عن غطرستها، وإشراك باقي فعاليات الشــعب في العملية السياسية، وإما توعية الشعوب الحقيقية التي تجعلها في مستوى يؤهلها إلى التفكير في أمور كالنهضة والتغييــر ونيــل الحقوق وغير ذلك.

عن العولمة ومجتمع المعرفة وأزمة المجتمعات العربية

من خلال كتاب عالم المستقبليات المغربي د.المهدي المنجرة

(عولمة العولمة من أجل التنوع الحضاري)

توطئة

ليس سهلا على القاريء أن يلم بما كتبه العالم المستقبلي د. المهدي المنجرة، وبما يطرحه من أفكار ووجهات نظر حول مختلف قضايا العالم، السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتربوية وغير ذلك، ومرد ذلك إلى سببين:

- ✓ أولهما أن د. المهدي المنجرة يملك نظرة شمولية إلى العالم والتاريخ والإنسان وغيرها من القضايا، حيث لا ينبغي للباحث أثناء تناوله الفصل بين قضية وأخرى، أو نصب الحواجز النظرية والإجرائية بين أبعاد الموضوع ومستوياته، باختصار، إنه يرفض الرؤية التجزيئية للأشياء والوجود والمجتمع، وإلا أودى الباحث بالترابط القائم بين مكونات الحياة، مما سوف يوقع رؤيته في الإسقاط والانتقاء والابتسار.
- ✓ أما السبب الثاني، فيتعلق بالمرجعية التي يبني عليها تفسيراته وتقديراته وتوقعاته، وهي كذلك مرجعية شمولية، تستثمر مختلف ما أنجزه الفكر العالمي؛ غربيه وشرقيه، قديمه وحديثه، مما يكسبها بعدا إنسانيا، قلما نعثر عليه عند غيره من المفكرين والمحللين والمستقبليين.

لذلك يتحتم على القاريء أن يتحلى ولو بجانب من المعرفة العامة، بشتى القضايا التي تشكل المادة الأولية لفكر المنجرة، تاريخية كانت أو واقعية، سياسية أو اقتصادية، ثقافية أو تكنولوجية، حتى يتسنى له استيعاب الرؤية الاستشرافية التي تكمن في كتابات وتحليلات

المنجرة، وهي رؤية موحدة في العمق، لكنها على صعيد التناول متعددة الصيغ والزوايا والاتجاهات.

وقد تنوعت قراءتي لفكر د. المهدي المنجرة، لاسيما من خلال كتبه المشهورة: الحرب الحضارية الأولى، حوار التواصل، قيمة القيم، عولمة العولمة، ثم العديد من الحوارات والتصريحات الموزعة عبر مختلف المنابر الإعلامية الورقية والرقمية، لكنها كانت قراءة عادية ومرحلية وأحيانا سطحية، وكنت أتوخى دوما أن يأتي اليوم، الذي أتفرغ فيه ولو لجانب مما كتبه أستاذنا القدير د. المهدي المنجرة، فأقرأه بتأن وتمعن وتفحص.

وقد تأتى لي اليوم ذلك، فاخترت أن أتناول كتابه (عولمة العولمة من أجل التنوع الحضاري)، فهو رغم أنه صغير الحجم، فإنه عظيم الفائدة، وعميق الرؤية، وقد صدر عن منشورات الزمن في سبتمبر من عام 2000، ويتركب من مقدمة وخمسة محاور، موزعة على حوالي 110 صفحة من الحجم الصغير (كتاب الجيب)، أول تلك المحاور عبارة عن محاضرة بعنوان: تحرير العولمة، ألقاها المنجرة ضمن أعمال الملتقى الذي تشرف عليه جمعية الدراسات السياسية بالمملكة المتحدة، وذلك في 3 يونيو 1999 بشعبة الأنثروبولوجيا والتاريخ بجامعة هوكايدو باليابان، وما يليه من المحاور هي بمثابة حوارات أجرتها مع المنجرة مختلف المنابر الإعلامية المغربية والعربية، كالغد العربي ومجلة الآداب البيروتية وجريدة العلم ومجلة فكر ونقد.

1- العولمة من منظور مغاير

إن ما قد يستغربه القاريء هو ندرة ما كتبه د. المهدي المنجرة عن العولمة، رغم أن تحليلاته وتوقعاته وأنشطته الفكرية والعلمية تندرج في الفضاء نفسه، الذي أنتج ظاهرة العولمة، التي أضحت

حديث الأقلام والنوادي ووسائط الإعلام، ترى كيف يمكن تفسير هذا الغياب أو التغييب؟ إن ذلك الاستغراب يزول بالتدريج من ذهن القاريء، بمجرد ما يطلع على موقف المنجرة المتردد من خوض موضوعة العولمة، فهو يقول: "لقد كنت مترددا في المشاركة في النقاشات حول "العولمة"، وما يزال تحفظي قائما إلى الآن. وكانت آخر الدعوات الموجهة إلي في هذا الإطار، وهي الدعوة التي رفضتها، قد وصلتني من المنتدى الاقتصادي الدولي، بخصوص الاجتماع بدافوس لسنة 1998"،[1] وقد أشارت الدعوة إلى أن المنجرة باعتباره من أولئك المتحدثين باسم العالم الثالث، فهو مدعو ليشاطره الآخرون وجهة نظره. ويبرر رفضه هذا، من خلال تساؤله الاستنكاري الذي يقول فيه: "لكن كيف يمكنكم القيام بتبادل لوجهات النظر مع أناس ذوي آراء قطعية ونهائية، أناس عقدوا العزم على استخدام كل الوسائل الممكنة لجعل أولئك الذين يفكرون بطريقة مغايرة يبدلون رأيهم؟"[2].

وما يلاحظ أن د. المهدي المنجرة يرفض فكر العولمة جملة وتفصيلا، لاسيما كما هو سائد ومستوعب في حاضر البشرية، ويدعم رفضه هذا بمجموعة من الأدلة العلمية والواقعية، التي يتقرر من خلالها أن العولمة لا تعدو أن تكون إلا أداة استعمارية جديدة، تتلبس بما هو اقتصادي أو إعلامي أو لغوي، ما دام أنها في واقع الأمر ما هي إلا عملية يتم بواسطتها، بمساعدة صندوق النقد الدولي والبنك العالمي، "تنظيم" نزع ملكية الشعوب بمباركة الزعامة المحلية التي لا يفوتها الاغتناء بالمناسبة.[3]

---

[1] عولمة العولمة من أجل التنوع الحضاري، د. المهدي المنجرة، منشورات الزمن، سبتمبر 2000، ص15

[2] المرجع نفسه، ص15

[3] المرجع نفسه، ص13

وعلى هذا النهج الرافض لظاهرة العولمة، والمتشائم من نتائجها وخلفياتها الوخيمة، يمضي د. المهدي المنجرة وهو يطعم رأيه بمختلف المواقف والوقائع والتفسيرات.

عولمة الفقر!

استنادا إلى جملة من المعطيات والإحصائيات العلمية والواقعية، التي يبدو فيها أن 17% فقط من سكان العالم هم المسيطرون على 80% من موارد الأرض، وأن الفارق بين الشمال والجنوب يتعمق أكثر، يرى المنجرة "أن ما تمت "عولمته" حاليا هو، بكل تأكيد، الفقر والظلم الاجتماعي والرشوة والاستلاب الثقافي، وهو أيضا التضييق على الحريات والحقوق المدنية. فما هو الحيز المتبقي للديموقراطية داخل مجال غير ملائم، مجال تم تشكيله ورعايته من لدن "القوة العظمى الوحيدة" وأتباعها؟ ذلك هو السؤال الحقيقي والشمولي الذي يحتاج إلى العولمة؟"[1].

العولمة توتاليتارية جديدة!

بعد قراءة المنجرة لأغلب أدبيات فكر العولمة، وتفحصه لمختلف تفسيرات المفكرين والمثقفين الغربيين بخصوص هذه الظاهرة، أمثال هانز مورغنتاو ومورغان كبلان وغونار ميردال وأورن ويونغ وغيرهم، يميط اللثام عن مدى قصورها المعرفي أو المنهجي، وعن أنها تنظر لعولمة مفصلة على مقاس السلطة، حيث "إن الحرية والتقدم العلمي، كما يعتقد، سيعانيان بشكل كبير، أثناء كل عملية مراقبة، مباشرة أو غير مباشرة، لسيرورة البحث عن الحقيقة. وفي الواقع، فإن هذه العملية هي أفضل وسيلة لتمهيد

---

[1] المرجع نفسه، ص14 و15

الطريق أمام الديكتاتورية والتوتاليتارية. "فالعولمة" تشكل بقدر كبير، توتاليتارية جديدة لا تعلن عن اسمها"[1].

العولمة والعجرفة الثقافية

يعتقد د. المهدي المنجرة أن إعلان بوش الحرب على العراق، يحيل في نظره (أي بوش) على أن الخطر الأكبر على الأمة (الأمريكية) وأصدقائها وحلفائها المقربين، ليس من طبيعة سياسية واقتصادية واستراتيجية فحسب، وإنما هناك مخاطر كبيرة تتربص بنسق القيم الخاصة بتلك الأمة، وتفاديا لهذه المخاطر يتحتم عليه الإبقاء على مراقبة إنتاج وتسويق البترول[2]. مما سوف يجعل من العولمة بمثابة مجهر توضع الكرة الأرضية تحت عدساته، لمراقبة أي حركة أو تحول يهدد مصالح الرجل الأبيض، إلى درجة أصبحت فيها العولمة تعني "أن صواريخ طوما هاوك وأنواع أخرى من الصواريخ أصبحت مستعدة للتدخل من أجل دعم وبقاء نسق من القيم و"أسلوب في الحياة" بأي ثمن كان، باستقلال عن انعكاسات ذلك التدخل على الآخرين"[3]. هكذا يتأكد أن هدف العولمة هو الحفاظ على مصالح الأقوياء، ولو كان ذلك على حساب قيم الآخرين، مما ينجم عنه تصاعد نزعة ثقافية تسلطية، لا تعترف بالخصوصيات الجهوية والإقليمية، ثقافية كانت أو سياسية أو اجتماعية، التي تنفرد بها كل مجموعة بشرية على حدة، وهذا ما يطلق عليه د. المهدي المنجرة العجرفة الثقافية، حيث يرى أن العولمة تتغذى من العجرفة الثقافية التي تمتح أصلها من الجهل

---

[1] المرجع نفسه، ص19

[2] المرجع نفسه، ص 27

[3] المرجع نفسه، ص28

واللامبالاة تجاه أنساق قيم أخرى وتجاه حقها في الوجود.[1] وهذا ما دعاه إلى الاستشهاد بتصريح الوزير الأول الفرنسي الأسبق، ليونيل جوسبان، الذي فحواه؛ أن العولمة تحمل في أحشائها خطر التنميط الثقافي.[2]

العولمة "طائفة" جديدة

بعدما تطرق المنجرة إلى أزمة منظمة الأمم المتحدة والمؤسسات التابعة لها، التي أصبحت مجرد آلية في يد الأقوياء، يحركونها حسب ما تشتهيه رغائبهم الذاتية، وينفذون بنودها الجافة والجوفاء وفق ما تقتضيه مطامحهم السياسية، يخلص إلى أنه "لم يعد بالإمكان إصلاح هذا النظام ولا إنقاذه، بل يجب أن يخضع إلى إعادة صهر كلية، تجعل منه ترياقا للعولمة"[3]، لكن هذا لن يتحقق مطلقا في ظل المعطيات العالمية الراهنة، المحكومة بالنظرة السياسية والثقافية والاقتصادية والاستراتيجية الأحادية، التي هي نظرة الولايات المتحدة الأمريكية ومن يسبح في فلكها. مما يجعل العولمة بمثابة "طائفة" جديدة لها مذاهبها الخاصة وأنصارها وطقوسها ومتصوفتها ومستثمروها وكبرى الشركات المتعددة الجنسية، وحتى مواقعها المتزايدة على الويب.[4]

العولمة سبب العنف!

يرى د. المهدي المنجرة أن كل هذه الويلات التي يتخبط فيها العالم، من نزاعات وتطاحنات وحروب واضطهادات وأوبئة، لن

---

[1] المرجع نفسه، ص28

[2] المرجع نفسه، ص31

[3] المرجع نفسه، ص32

[4] المرجع نفسه، ص32

تحل إلا بما يطلق عليه "السلم الكوني لا أقل ولا أكثر"، لكن تفعيل هذا السلم يقتضي توفر الإرادة اللازمة لدى الأقوياء والضعفاء معا، ومادام ذلك لا يزال غائبا، فإن دار لقمان سوف تظل على حالها، فتزداد العجرفة الثقافية حدة، ويطغى لدى الأقوياء الاستئثار بقيمهم على حساب قيم الآخرين، مما يصعد من منسوب المواجهة والتطاحن، فــتكون العولمة "أحد الأسباب الأساسية في صعود العنف وتناسل النزعات التي نلاحظها على المستوى الكوني"،[1] كما أنها تشكل "ذلك الحقل المناسب لمواجهات كونية أخرى، أكثر حدة وتهديدا لاستمرار الإنسانية على قيد الحياة".[2]

2- المستقبل لمجتمع المعرفة

تكاد تشكل موضوعة المعرفة طرحا قائما بذاته في فكر د. المهدي المنجرة، الذي خصص لها حيزا كبيرا في دراساته المتنوعة، فكيف ينظر إلى المعرفة؟ هل باعتبارها مجرد قضية ثقافية عادية، أم أنها أكثر من ذلك؟ وما هو تأثير المعرفة في المجتمع الإنساني؟ ثم ما هو النطاق الذي تشغله في زمن محكوم، من جهة أولى بالثورة الرقمية الهائلة، ومن جهة أخرى بالصراعات السياسية والأيديولوجية والعسكرية الضارية؟

مجتمع المعرفة

يرى د. المهدي المنجرة أن العالم دخل منذ مدة ما يطلق عليه (مجتمع المعرفة)، والمعرفة كما يوضحها، هي مجموع المعلومات، والإشكال القائم هو كيفية الوصول إلى سر هذه المعلومات وسر

---

[1] المرجع نفسه، ص33

[2] المرجع نفسه، ص33

هذه المعرفة.[1] ثم إن المعرفة في العصر الحديث، الذي هو العصر الرقمي، أصبحت أكثر استجابة لمقتضيات التغيرات الصناعية والاقتصادية والسياسية والثقافية الجديدة، مما أكسبها خصائص مغايرة نوعا ما، لما كانت عليه الثقافة التقليدية، إن السمة الأساسية للمجتمع المعرفي "تتمثل في أن الحدود التي كانت، في الماضي، قائمة بين ميادين المعرفة المختلفة قد انتهت أو شارفت على النهاية".[2]

إن انتفاء الحواجز النظرية والمنهجية بين حقول المعرفة وميادينها، فسح المجال أمام انفجار معرفي منقطع النظير، أضحى العقل البشري عاجزا عن استيعابه ومواكبته، حيث أنه ثمة ما بين ستة وسبعة مليون مقالة علمية تصدر كل سنة، في أكثر من خمسين ألف مجلة متخصصة، ثم إن محرك البحث (ياهو) يحتوي على ما يناهز مليار وثيقة، بوتيرة وثيقة كل ثانية، ولو أراد الفرد تعدادها لتطلب منه الأمر خمسين سنة أو أكثر.[3]

هكذا يتقرر أن ابتكار المعرفة أصبح يشكل ثروة حقيقية، تفوق قيمتها قيمة أي ثروة، كيفما كان مصدرها ونوعها، فـ "حضارة المستقبل تعتمد بشكل أساس على الإنسان وليس على المزرعة ولا على المصنع، إنها حضارة المعرفة، والبحث والمعلومات والتقنيات".[4]

التفاوت المعرفي بين الشمال والجنوب

---

[1] المرجع نفسه، ص36

[2] المرجع نفسه، ص37

[3] المرجع نفسه، ص40

[4] المرجع نفسه، ص99 و100

إن د. المهدي المنجرة يضع تساؤلات عميقة أمام مختلف المؤسسات التقليدية، وهي تشكل في حد ذاتها تحديات عويصة، حيث كيف لهذه المؤسسات "أن تتكيف مع درجة السرعة هاته، ومع التطور المذهل الذي تعرفه المعرفة على اختلاف مشاربها؟ كيف لهذه المؤسسات التقليدية أن تساير الركب و90% من المعارف الإنسانية أنتجت خلال الثلاثين سنة الماضية فقط، والاختراعات لا تتوقف".[1]

إن عبارة (المؤسسات التقليدية) تحيل ضمنيا على مؤسسات الجنوب، رغم أن المنجرة لم يذكرها صراحة، إلا أن ثمة أكثر من قرينة تثبت ذلك، كالتقليدية، وعدم مسايرة الركب، والتفاوت المعرفي، وغير ذلك، وهذه القرائن هي في حد ذاتها مظاهر لتخلف الجنوب وتأخره، ليس فقط التخلف المادي أو التأخر الصناعي أو غيرهما، وإنما التخلف المعرفي، مما يعمق الهوة أكثر بين الشمال والجنوب، فيصعد مؤشر التفاوت بينهما صعودا صاروخيا، إلى حد أن ثمة من الخبراء من يرى أن تلك الهوة أو هذا التفاوت لا يحدد بالسنوات والعقود، ولكن يحدد بالأجيال والقرون.

هكذا يبدو المنجرة مصرا على اعتبار المعرفة هي الثروة الحقيقية، حيث أنه يؤول بطريقته الخاصة بعض المفاهيم، واضعا لها تحديدات مغايرة لما جبل عليه الجمهور، وخير نموذج لذلك كيفية فهمه لمصطلح الثروة، فهو لا يحددها فيما هو مادي، كما يهيمن لدى الناس؛ عامتهم وخاصتهم، مما يبعثر المعادلة التقليدية التي يبدو فيها الجنوب، بما فيه العالم العربي والإسلامي وكذا الثالثي، وهو يزخر بالثروات، لكنها حسب رأي المنجرة هي ثروات زائلة، يقول: "في الواقع لا توجد ثروات في الجنوب إذا عرفنا الثروة على أنها البشر المنتج للمعرفة، أما الثروة بمعنى المواد الخام والأيدي

---

[1] المرجع نفسه، ص41

العاملة الرخيصة فهذه لا مكان لها في الحضارة الجديدة، من هذا المنطلق أقول إن التفاوت سيبقى لكن على مستويين، تفاوت علمي ومعرفي بين الشمال والجنوب، وتفاوت في الجنوب بين الأثرياء والفقراء".[1]

خلاصة القول، يستوعب من تفسيرات وتحليلات د. المهدي المنجرة أن الشعوب التي تطمح إلى أن تنال حيزا لها في المستقبل، فتضمن بذلك استمرارية قيمها وثقافاتها ولغاتها وهوياتها، ينبغي لها أن تراهن على سلاح المعرفة، فهو السلاح الذي لا يصدأ ولا يبلى، لذلك فهو يستغرب من صفقات السلاح التي تعقدها الدول العربية مع الغرب، فهي في نظره لا قيمة لها، مادام أن ذلك السلاح لن يستخدم، لأنه أولا معقد تكنولوجيا، وثانيا لا توجد حاجة لاستعماله، يقول: "ولو خصصنا موازنات التسليح لمحو الأمية ودعم الجامعات والمراكز العلمية لصار لدينا شعب قوي يهابه الآخرون، فترسانات الأسلحة مهما كانت مليئة لا تخيف أحدا، لكن الخوف يأتي من شعب مسلح بالمعرفة".[2]

3- تشخيص أزمة المجتمعات العربية

يقيم د. المهدي المنجرة التاريخ العربي الحديث، بالتحديد المرحلة المابعد استعمارية[3]، بأنه تاريخ انتكاسات على مختلف الأصعدة، سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها، ولا يقف عند هذا التقييم الظاهري، الذي قد يخلص إليه أي مثقف عادي، وإنما يتساءل عمن يقف وراء هذه الانتكاسات التاريخية، ثم يجيب بسؤال

---

[1] المرجع نفسه، ص102

[2] المرجع نفسه، ص106

[3] تجدر الإشارة إلى أن المنجرة يشكك في استقلال العالم الثالث، حيث أنها ما زالت مستعمرة سياسيا واقتصاديا وثقافيا.

استتكاري عميق: أليسوا هم الحكام والنخب السياسية التقليدية والرجعية العربية؟[1]

وقد حاول في موضع لاحق من الكتاب، تأكيد أن الأزمة الحقيقية للمجتمعات العربية تتجلى في النخبة السياسية، التي تفتقد الرؤية الفكرية المتوازنة التي من شأنها أن "توجه حاضرنا وتقرر مصيرنا المستقبلي، بل إن غياب هذه الرؤية قد لا تسمح لنا بفهم ماضينا واستجلاء خصوصياته ومقوماته، التي عمل الاستعمار ما أمكن ليدفنها كي نعيش بماضيه، بعد أن صرنا نعيش بحاضره".[2]

وفي مقابل الحكام والنخب السياسية، تقف الشعوب على الضفة الأخرى، وهي متذمرة مما آلت إليه وضعية بلدانها، التي أصبحت بمثابة ضيعات في أيدي أولئك الحكام، يستثمرون خيراتها كما يحلو لهم، أو حسبما يتلوه عليهم أسيادهم الغربيون، لكن رغم ذلك التذمر الشعبي، فإن ثمة طموحات ما تتخلل نفوس الشعوب العربية، وآمالا في التغير والإصلاح، لكن تلك الطموحات وهذه الآمال تظل مجرد أضغاث أحلام، ما إن لم تفعل بالقرارات السياسية الجادة والممنهجة.

إن النخبة السياسية العربية الحاكمة لم تبلغ بعد مستوى الوعي الإيجابي، بما تفكر فيه الشعوب، وبما تطمح إليه، وبما تحتاجه، ليس لأنها لا تدرك ذلك، وإنما لأنها لا تملك الشجاعة الكافية للاستجابة لذلك، ومرد ذلك إلى عاملين نفسيين أساسيين هما: جهل قيمة الشعوب، وعقدة الخوف من الشعوب.

1. **جهل قيمة الشعوب:** يقول د. المهدي المنجرة في هذا الصدد وهو يقصد مشاركة الشعوب: "المشاركة مسألة ضرورية في كل عصر، وفي أي حضارة وسوف تلاحظ أنه كلما شارك

---

[1] المرجع نفسه، ص65

[2] المرجع نفسه، ص67

الشعب في تقرير مصيره وسياسته ومستقبله، تحقق التقدم والحضارة، يمكنك أن تلمس ذلك في المجتمع الإغريقي وحتى الآن، بل إن المجتمع العربي لم يشهد حالة ازدهار إلا في ظل ديمقراطية أو شورى كانت تسمح للمواطن أن يقول للحاكم (لا)".[1]

2. **عقدة الخوف من الشعوب:** يقول د. المهدي المنجرة: "أما الأنظمة العربية الأخرى، باختلاف أنظمتها وأيديولوجياتها، فقد ظلت تشكو عقدة مزمنة، وهي عقدة الخوف من شعوبها، ولذلك كانت كل استراتيجيتها تقوم على الهاجس الأمني، فراحت تقوي نفوذ النخبة الأمنية على حساب النخبة السياسية والاقتصادية والفكرية الفاعلة، فصارت الشعوب العربية كلها تحت أنظمة عسكرية أو شبه عسكرية".[2]

على هذا الأساس، فإن أي تغيير جاد أو إصلاح منشود في العالم العربي والإسلامي، لن يتأتى إلا بإزاحة هذه العوامل النفسية، التي تولد عنها تغييب الشعوب تغييبا كليا، من أي معادلة سياسية أو اقتصادية أو ثقافية تهمها، حيث ظلت ومازالت الطغمة الحاكمة والنخبة السياسية الموالية لها، منفردة بتشكيل ملامحها وصياغة قراراتها، وبمجرد ما تدعى الشعوب للمشاركة في هذه المعادلات، على أساس من الديموقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية، سوف تلوح في الأفق أمارات التغيير الإيجابي والإصلاح المنشود.

مستقبل البلاد العربية رهين بسيناريو التغيير الجذري

إن العوامل النفسية المشار إليها سابقا، تقف سدا منيعا أمام أي تفاعل للحاكم العربي مع شعبه، وبمجرد ما تتلاشى تلك العوامل،

---

[1] المرجع نفسه، ص107

[2] المرجع نفسه، ص66

تحضر بعض محفزات الانطلاق والنهوض والإصلاح، لكن ما السبيل إلى ذلك، ونحن نعلم أن الحاكم العربي صناعة غربية محضة، هدفها الحفاظ على المصالح الغربية السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة العربية والإسلامية، وثمة نماذج كثيرة لحكام صنعهم الغرب حسب المقاسات التي يريدها، وعندما تنتهي مهمتهم المرسومة يلقى بهم في مزبلة التاريخ! وفي هذا الشأن يطرح د. المهدي المنجرة هذا السؤال العميق: "لم لا نصرح بأن هذا العالم العربي – في بعده الجيوسياسي، لا في بعده الحضاري – اختراع غربي أو خارطة رسمها الإنجليز والفرنسيون، وجاؤوا بحكام ما نزال إلى اليوم نؤدي ضريبة بلادتهم وتبعيتهم السياسية للغرب".[1]

من هذا المنطلق الواقعي، يبدو د. المهدي المنجرة أكثر تشاؤما من الوضعية الراهنة التي توجد عليها البلاد العربية والإسلامية، وهو ليس تشاؤما رومانسيا أو عاطفيا، وإنما تشاؤم واقعي مدعوم بالمعطيات والإحصائيات والوقائع، ولا يرى المخرج للشعوب العربية والإسلامية من ذلك المستنقع إلا بالتغيير الجذري.

إن فكر د. المهدي المنجرة يتميز بقراءة خاصة ومتميزة لواقع العالم العربي والإسلامي، تنبني على رؤية واقعية واعية، ترى أن تغيير هذا الواقع محكوم بثلاثة سيناريوهات ممكنة:

1. **سيناريو الاستقرار والاستمرار:** وهو يعني أن تستمر الأمور على ما هي عليه، لذلك فهو يحتاج إلى دعم من البنك الدولي والجيوش الغربية، وهو لا يعدو أن يكون إلا مجرد استقرار بيولوجي، يحكم على المجتمع بالموت وتعطيل الإبداع والخلق والعطاء، وهو غير ممكن في حياة الشعوب.

---

[1] المرجع نفسه، ص70

2. **سيناريو الإصلاح:** وقد تعطل نظرا إلى استمرار السيناريو الأول، ويمكن لهذا السيناريو أن ينجح بنسبة 30%، إلا أن ذلك يظل رهينا بسرعة التدخل لإقامة الإصلاحات، والوعي بالإكراهات، وكلما تأخر العمل بهذا السيناريو كلما تعذر الإقدام على إصلاحات فاعلة وناجحة.
3. **سيناريو التغيير الجذري:** أو المواجهة أو التحولات الكبرى والعميقة، وإلى حد الآن لا ندري كيف سيتم هذا التغيير وما هي درجة سرعته، فبإمكانه أن يقع في أي لحظة، والشيء الوحيد الذي نتمناه هو أن يكون ثمن هذا التغيير قليلا، ثم أنه كلما تأخر كلما ازدادت التكلفة.[1]

إن الوضعية المتردية للبلاد العربية والإسلامية، لن تحل بسيناريو الاستقرار والاستمرار، ولا بسيناريو الإصلاح، وإنما بسيناريو التغيير الجذري، وهذا التغيير يمكن أن يتخذ مظاهر متعددة، بحسب السياق الذي يتم فيه، فقد يكون عن طريق الثورة والمواجهات المحتدمة، وقد يكون بالتنازل السلمي، وقد يكون بالإشراك العادل لفئات جديدة من الشعب، وقد يكون بطرائق أخرى.

والآن، تتوفر للنخب السياسية العربية والإسلامية الحاكمة مختلف الخيارات والإمكانيات المؤدية، إلى تغيير جذري بخسائر أقل، حتى تجنب بلدانها ويلات الحروب الأهلية والتطاحنات العرقية والأيديولوجية، فهل آن الوقت لـــ "تستوعب جيدا أن مهمتها قد انتهت، وأن عليها أن تتخلى عن دور القيادة السياسية لصالح جيل شاب قادر على تسيير الشأن العام".[2]

خاتمة

[1] المرجع نفسه، بتصرف من ص72 إلى ص76

[2] المرجع نفسه، ص98

رغم كل هذا التشاؤم الذي يتخلل تفسيرات د. المهدي المنجرة لجملة من قضايا البشرية المعاصرة، كالعولمة وسيطرة الشمال على الجنوب وأزمة المجتمعات العربية وغياب الديموقرطية وغير ذلك، وهو تشاؤم نفضل أن ننعته بالواقعي، لأنه ليس من نسج الخيال وتخميناته، وإنما نابع من حقائق الواقع وتناقضاته، رغم كل ذلك، فإن ثمة بصيص أمل يبعث على التفاؤل، ويمكن تعزيز ذلك بمجموعة من العوامل الموضوعية:

- ✓ فالفرج سوف يأتي، حسب د. المهدي المنجرة، من خلال جيل جديد يتمثل في أن نسبة كبيرة من أبناء الوطن العربي تحت 24 سنة.
- ✓ كما أن وعينا بأننا فشلنا هو في حد ذاته يشكل دافعا قويا لتجاوز ذلك الفشل.
- ✓ وأن النزاعات العربية الحادة التي تفجرت في التسعينات كانت مفيدة لأنها عرت الواقع العربي، وكشفت زيف الادعاءات الوحدوية، ووضعتنا أمام حقائق موضوعية.
- ✓ وأن الشارع العربي أصبح يملك وعيا سياسيا وثقافيا بخصوص حقوقه الديموقراطية، مما جعل الناس ينظمون أنفسهم في الأحزاب والجماعات.
- ✓ ثم إنه نتيجة الهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية الجديدة، صارت النخب الثقافية تدرك أهمية القيم الحضارية، والهوية الثقافية لمواجهة الغزو الوافد، مما سوف يشكل مقوما لبناء نسق من الأفكار الذاتية، التي تستفيد من المعطيات الحضارية والمعرفية لإثراء الوعي العربي وليس نفيه.[1]

[1] المرجع نفسه، بتصرف ص 104 و105

العراق المستقبلي؛ من ثقافة التحالف إلى ثقافة المقاومة

محاولة لفهم المسألة العراقية انطلاقا من مؤلف الكاتب العراقي باقر الصراف: (العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية)[1]

تمهيد

يصعب على من ليس خبيرا في قضية ما، أن يخوض الحديث في شؤونها دون زلل أو سوء استيعاب؛ ذلك هو حالي لما أزمعت على قراءة مؤلف الكاتب العراقي الأستاذ باقر الصراف، حيث لم أتمكن من فهم تلقائي وشاف لجميع خيوط الدراما المأساوية الدائرة أحداثها على المسرح العراقي، ما دمت أولا ليس دارسا متمكنا خَبَر هذه القضية، سواء في جذورها التاريخية، أو ملابساتها الواقعية، أو تداعياتها السياسية، أو أبعادها الاستراتيجية، وثانيا لست مواطنا عراقيا عايش مجريات هذه القضية بحذافيرها، فاكتوى بنار الاستبداد الذي ران عبر عقود طويلة على نفوس وأفكار كل مكونات الشعب العراقي، وعان من ويلات الحروب المتتابعة التي أتت على اليابس والأخضر، وقُدّر له أن يحيى، إما مهانا تحت حذاء الحاكم وأذنابه، وإما طريدا تتقاذفه أمواج الحياة العاتية من منفى لمنفى. لهذا السبب كانت درجة إدراكي متراوحة بين الركون إلى ما أعايشه، كقارئ ومتابع لمتغيرات العالم الذي ننخرط فيه، وما يقترن بذلك من تناولات إخبارية وتفسيرات للحوادث والمستجدات، تتنوع بتنوع التوجهات المعرفية والعلمية والسياسية والأيديولوجية وغيرها، وبين الانطلاق مما تستنبطه ذائقة فهمي للأمور وخلفياتها، هذه الذائقة التي تحاول التحلي ولو بدرجة دنيا من الموضوعية والمعقولية.

[1] العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية، باقر الصراف، ط1/أوروبا، 20 غشت 2003

لقد تعرفت مؤخرا شخصيا إلى الأستاذ باقر الصدر، وذلك في إطار جهدنا الجهيد مع ثلة من المثقفين الشرفاء لتأسيس إطار ثقافي، يكون بمثابة مشروع جماعي يساهم في نسجه مثقفون من سائر الثقافات والتوجهات والمشارب والأعراق، هدفه الأسمى هو فتح أبواب التواصل الموصدة بالحوار الإيجابي مع كل الأطراف داخل المجتمع الهولندي المتعدد الثقافات، وتأكيد الدور الريادي والفعال الذي يمكن أن يقوم به ما هو ثقافي لتعميم سلوك التسامح والتعايش بين بني البشر، هذا يعني أن تعرفي إلى الكاتب تم قبل أن أقرأ له ولو حرفا مما كتب، وفي نطاق هذا التعارف حصل بيننا بعض الحديث المقتضب حول أمور شتى ابتداء من وجودنا بالغرب، وصولا إلى ما يجري في العراق على يدي هذا الغرب، وبعدها شرعت في قراءة جانبا مما ينشره الكاتب في موقع (عربستان) الإلكتروني، لكن تملكني العجز عن قراءة كل ذلك الزخم من المقالات والكتب التي ألفها الكاتب، فلم أعرف من أين ولا كيف أبدأ في محاورة هذه التجربة الفكرية الفذة، مما دعاني ذات يوم، وكنا جلوسا، ومعنا الكاتب المغربي علي لهروشي، إلى أن أبوح له بأنني لم أعرف من أين أبدأ في قراءة ما كتبه، فوعدني فورا بأن يحضر لي بعضا من كتبه، فكان ذلك في لقائنا المقبل حيث منحني كتابيه: (العراق بين الرؤية الغربية وممارسات المعارضة)، و(العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية).

العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية

لقد انصب اختياري على الكتاب الأخير (العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية)، وقد طبعه الكاتب (الطبعة الأولى، أوروبا) قبل ما يعادل السنة والنصف، وذلك بتاريخ 20 غشت 2003، ويلي

العنوان الرئيس للمؤلف عنوان فرعي هو: دفاتر الأزمة السياسية العراقية والاحتلال العسكري الأمريكي (الدفتر الثاني)، والعنوان في شكله الكامل يوحي بأكثر من دلالة حول كيف سيكون المحتوى المبثوث بين ثنايا الكتاب، وما هي أهم المضامين التي يحاول الكاتب مقاربتها وتفكيكها، وما هي المرجعيات التي يستند إليها المؤلف في تناولها، ومن ثم ما هي الاستنباطات التي يستخلصها المؤلف من تداعيات المسألة العراقية في شموليتها، ويمكن سرد هذه الدلالات في النقاط الآتية:

- ✓ يشكل العنوان الرئيس (العولمة الأمريكية ضد الدولة العراقية) في حد ذاته ثنائية ضدية مؤسسة على التنافر والخلاف وليس الاختلاف، حيث الخلاف يكون بين ندين في شكل تصارع مبرمج من أجل شيء ما، ماديا كان أو معنويا، والاختلاف ينطبع بسمة التنوع الموجب في شكل طبيعي وتلقائي، وما يعمق الهوة بين عنصري أو عناصر العنوان، هو كلمة ضد التي تعري عن مدى حجم الشرخ الكائن، بين ما هو أمريكي وما هو عراقي، بين ما هو عولمي بالطريقة الأمريكية وبين ما هو أصيل ينبثق من الوجود الحضاري والتاريخي للدولة العراقية.
- ✓ ثم يأتي العنوان الفرعي ليدعم هذا التضاد، حيث العراق في أزمة سياسية خانقة لم يسبق لها مثيل، وذلك في خضم الاحتلال العسكري الأمريكي، الذي يمكن اعتباره السبب المسؤول عن نشوء هذه الأزمة، يقول الكاتب في الصفحة 44 من الجزء الثالث من مؤلفه: "إن هذا الغزو الهمجي كان في طبيعته التكوينية يمثل عملية سطو نموذجية تجسد الرؤية السياسية العولمية العالمية، تقنية متقدمة متسلحة حتى قمة صماخ رأسها، إرادة سياسية تسلطية، لسحق بلد

من العالم الجنوبي أراد اختيار سياسته الوطنية الخاصة من دون ضغوط خارجية ولا هيمنة أجنبية". والغزو المبني على أساس هذه الرؤية التسلطية والهمجية لا ينتظر منه أبدا أن يُفعل السياسة العراقية ويطعمها بلقاح الإصلاح، بقدرما يغرس بذور الأزمة حيثما حل وأينما ارتحل، وهذا ما يحصل ليل نهار في العراق، الذي لا يشهد تأزما سياسيا، وإنما يشهد انعداما سياسيا!

- ✓ يسمي الكاتب أجزاء مؤلفه (دفاتر)، ويطلق عليها في موضع آخر (الدفتر الثاني)، وهذا يحيل على أن ثمة دفاتر أخرى كتبها الكاتب في نفس الموضوع، وهذا ما ينكشف لنا بجلاء عندما نقرأ الجزء الثاني من الكتاب الذي دبجه بخطاب موجه إلى موقع (كتابات)، فندرك أن أغلب المقالات المبثوثة في هذا السفر، تم نشرها - في شكل دفاتر- في ذلك الموقع، قصد إغناء الحوار حول العراق المقبل؛ يشير الكاتب إلى أن السادة المشرفين -على الموقع- قد حددوا نمط المساهمة الفكرية على أساس عودة العراق إلى أهله، وبالتالي بدء مرحلة جديدة من عهده المستقبلي... ص 22.
- ✓ هل ينطبق عنوان الكتاب على محتواه؟ بعبارة أخرى؛ هل تمكن الكاتب من عكس ما يوحي به عنوان كتابه من خلال الموضوعات والقضايا التي ضمنها مؤلفه؟ إن أهم ما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب، هو أن الكاتب أفلح عندما ربط كلمة (العولمة) بالنعت (الأمريكية)، فخصص بذلك أي عولمة يقصد، لأن العولمة في أصلها نتاج غربي وليس نتاجا أمريكيا، وأمريكا ما هي إلا جزء من الكل الذي هو الغرب، ثم إن في الغرب الكثير من الأنظمة التي

تعاطفت مع العراق، وعارضت بشدة ما أقدمت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وأتباعها، لذلك أرى أنه من الأهمية التفريق بين العولمة المسالمة، التي ديدنها الانفتاح الإيجابي بين الشعوب، على أساس التبادل العادل للمعارف والمخترعات والمصالح وما والى ذلك، والعولمة الشرسة التي ترتكز على فكرة الهيمنة المطلقة على العالم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وعسكريا... والتي ما هي إلا نسخة طبق الأصل للاستعمار التقليدي الذي لم يمر على انقضائه النصف قرن.

- ✓ وقراءتي لكتاب الأستاذ باقر الصراف، هي في الأصل محاولة مني لفهم المسألة العراقية من خلال محتوى هذا الكتاب، وما يترتب عن ذلك من تأويلات تنطلق من أفكار الكاتب لتعود إليها مدعمة إياها أو مطعمة أو مخالفة، كما أن تسمية القراءة أو المحاولة للتناول الذي أساهم به، يعني في حد ذاته أنه يبقى مفتوحا على مصراعيه لأي إضافة أو تمحيص أو نفي.

العراق المستقبلي؛ من ثقافة التحالف إلى ثقافة المقاومة

إن المسألة العراقية الراهنة لا يمكن استيعاب فصولها إلا إذا وضعناها في إطار سياقها العام، وتناولناها "ليس بالطريقة النابعة من أيديولوجية مقطوعة الجذور عن البعدين الزماني والمكاني" ص 32، لكن للأسف كل واحد يحاول تفسير ما يحدث في بلاد الرافدين من خلال سياقه (هو) الخاص، وحسب توجهه الأيديولوجي الضيق الذي لا يسع حتى للأيديولوجيا التي يؤمن بها، فإن كان متواطئا أو متعاطفا مع النظام البعثي البائد، راح يؤول الأمور في بعدها الخارجي والشكلي؛ فصدام هو الحاكم العربي الوحيد الذي استطاع

أن يحدث ثورة علمية وعسكرية لم يسبقه إليها أحد من أقرانه من الحكام العرب، وأنه الوحيد الذي تحدى جبروت الدولة الأمريكية، وأنه الوحيد الذي زرع الهلع في نفوس الصهاينة، وأنه الوحيد الذي بإمكانه حماية القومية العربية من الامتداد الأجنبي غربيا (الغرب كان أو شرقيا (الفرس)، لكن يغيب ذلك البعد الداخلي والجوهري؛ حيث استعباد الملايين من شرفاء الشعب العراقي على يد عصابة ومرتزقة النظام، حيث الزنازين ملأى على آخرها بصفوة العلماء ورجال الفكر الذين لا يقدرون بثمن أو مقابل، حيث مئات الآلاف من المثقفين والمعارضين والطلبة يتسللون تحت جنح الظلام أو الظلم البعثي نحو بلاد الضباب والجليد... وإن كان معارضا أو متذمرا من الحكم البعثي، صار لا يرى خلاص الأمة العراقية إلا في الخلاص من صدام ومجموعته المستبدة ولو على يد العدو، وهو يحلم بأن تنتقل الديمقراطية التي يعيشها في عواصم الغرب المتقدم إلى بغداد والموصل وكركوك والبصرة والنجف، وغيرها من الحواضر والبوادي العراقية، وهو ينسى ما يخططه المتحالفون وراء الكواليس ليس للعراق فقط وإنما للأمة الإسلامية جمعاء، ويخفى عنه مدى انفتاح شهية الغرب المتأمرك للذهب الأسود الذي تنطوي عليه الصحارى العربية، ولا يدري أن الديموقراطية لا تأتي على ظهر الدبابات الأمريكية، وإنما تنبعث من وعي الشعوب كما تنبعث النبتة من بين الصخور، إذ " لم يتحدث التاريخ مطلقا عن ديموقراطية سياسية مجلوبة بقوة احتلال عسكري" ص 96، ولا يتذكر أنه لا يحك جلدك إلا ظفرك، وأن الذين ساعدوا إسرائيل على سرقة فلسطين على مرأى من العالم لن يساعدوا العراق أبدا على أن ينمو ويصلح شأنه.

هذان الموقفان المتضادان هما السائدان، سواء على مستوى الفكر الذي تعرض للمسألة العراقية الحالية، أو على صعيد الواقع المعيش

داخل العراق أو خارجه، وقلما نصادف تناولا وسطيا للقضية؛ لا ينبهر ببريق الأطروحة الأمريكية التي تعد أكثر مما تفي، ولا ينشدّ إلى شعار التحدي الذي كان يرفعه النظام البعثي، وهو تحدٍّ انبنى على أنقاض جماجم الملايين من الأبرياء والمستضعفين، وهذا التناول يحمل بين أحشائه إرهاصات الفكر البديل والمتنور الذي يرتكز على التواصل الإيجابي بين جميع مكونات الشعب العراقي، على أساس من المصالحة الوطنية العامة بين كل الفصائل والتيارات والتوجهات، التي ينبغي أن تضع بين ناظريها هدفا أسمى، ألا وهو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الجسد العراقي الممزق، وذلك عن طريق تفعيل آلية الحوار الجاد والبناء بين الكل، هذا الحوار الذي يقتضي من سائر الأطراف التنازل، ولو مرحليا، عن خلافاتها المعدودة، والتكتل حول العناصر التي تؤلف بين رؤاها، وهي عناصر نابعة من صميم الهوية العراقية والتاريخ المشترك والمصير الموحد وغير ذلك، تعتبر بمثابة العقد الذي سوف يوحد بين الفصوص المتناثرة هنا وهناك.

ويمكن فهم فكر باقر الصراف في هذا الإطار الوسطي العام الذي يحاول التوفيق بين كل مكونات الواقع العراقي، دون الاعتماد على الأجنبي الذي ما هو إلا مخادع، تتلبس بواطنه بالنظرة الكولونيالية (المنفوطة)، حيث يقول في الصفحة 8 من مقدمة الكتاب: "كانت رؤيتنا السياسية تعتمد الأخذ بخيار الاعتماد على الذات للوصول إلى حل وطني للأزمة السياسية عبر الحوار الفكري والسياسي بين أطراف العمل السياسي الوطني، بدلا من الاعتماد على العنصر الأجنبي". كما يستشهد بما أكده المؤتمر الثاني للتحالف الوطني العراقي الذي انعقد بلندن في آخر شتنبر وأول أكتوبر من عام 2000، ونقتبس منه العبارة الآتية: "إنها عملية شاقة ومعقدة تتطلب توافر كل الجهود من جميع الأطراف الوطنية المعنية، بما في ذلك

السلطة التي تقع عليها المسؤولية الأولى" ص 10، هذا كلام جميل، لكن تنزيله إلى الواقع كان يستدعي لمّ شمل كل الأطراف المتنافرة رؤاها وأهدافها من جهة، وكان يقتضي من جهة أخرى إما التملق للحكم البعثي حتى ينال هؤلاء المبادرون (التحالف الوطني العراقي) بهذا المشروع رضي صدام وعصابته، وإما تحدي الحكم البعثي، وهذا لا محالة كان سوف يؤدي بأعضاء التحالف إلى شر تهلكة أو إلى غياهب السجون.

الآن وقد ذهب نظام صدام أدراج الرياح، هل هذه الصيغة من الحوار التي طرحت حينذاك يمكن تعديلها واقتراحها، من جديد، في ظل الحالة الراهنة التي آل إليها العراق؟ وإن كان الأمر كذلك، كيف سيكون التعامل مع مجلس الحكم الحالي، الذي يُشرْعِنُ به الغزو الأمريكي وجوده على الأراضي العراقية؟ ألا يمكن اعتبار إياد علاوي وأترابه صداما جديدا وفق الرؤية والخطة الأمريكيتين؟ هذه الأسئلة وغيرها، تجعلنا نستنبط البعد الإشكالي للمسألة العراقية، الذي يضع العراقيين أمام تحديات شتى، حيث من الصعوبة بمكان التسليم بأن الحوار مع الحكومة العراقية الراهنة سيؤتي أكله، خصوصا وأنها بدأت تعيد نفس السيناريو الذي كان سائدا إبان المرحلة البعثية، فلا تكترث إلا بمستقبلها السياسي المدعوم بالدبابات الأمريكية، ولا يهمها إلا أن تحقق طموحاتها السيادية التي كانت تحلم بها يوم كانت في صف المعارضة، هذا ما يحفز الكثيرين على أن الخيار الوحيد الذي يجب أن يتشبث به العراقيون هو خيار المقاومة الوطنية الشريفة، يقول الكاتب:" أمام كل الوطنيين العراقيين طريقا وحيدة الاتجاه هو طريق الوحدة والمقاومة... طريق إجماع كل الشعب على المقاومة للغزاة والتحرير للعراق والتحرر الوطني والوحدة الوطنية العراقية ذات الخصائص الاجتماعية الموحدة، والحياة المبنية على احترام

المواطنين من شتى الانتماءات الفكرية والقومية... طريق الاستقلال السياسي الكامل والسيادة الوطنية التامة للدولة العراقية..." ص 75.

قد يتخيل للبعض أن فكر باقر الصراف يترجح بين طرفي نقيض؛ قبل الغزو الأمريكي كان يدعو إلى تحالف وطني مؤسس على الحوار الإيجابي الفعال بين سائر الأطراف، لإيجاد صيغة واعية لعراق مستقبلي يحضن كل أبنائه، وبعد الغزو صار يدعو إلى انتهاج أسلوب المقاومة ضد الاحتلال وأذنابه، لكن إذا ما راعينا السياق العام الذي طرح فيه الكاتب أفكاره، ينتفي ذلك التناقض المتخيل، فمشروع التحالف الوطني كان سيؤتي ثمره، لو اتخذت خطوات جادة وشجاعة في التحاور، سواء مع الشركاء السياسيين والثقافيين أو مع ممثلي السلطة العراقية آنذاك، والآن يتراءى خيار المقاومة هو الحل الوحيد المعقول الذي ينبغي نهجه، ما دام العراق يرزح تحت نير غزو أجنبي مدعوم من قبل ثلة من العملاء.

الإسلام في مواجهة الغرب المتأمرك والمتصهين!

وحتى نستوعب أكثر، وبشكل أصح، ما يجري في العراق بخاصة، ينبغي أن نموضع ذلك في إطار الصراع الحضاري الشمولي القائم بين الإسلام والغرب، والذي تمثل قديما في الهجمة الصليبية على الإسلام، وتجلى حديثا في الحملة الاستعمارية التقليدية التي مارستها الدول الأوروبية على العالم الإسلامي، التي تبعها الاحتلال الصهيوني القسري للأراضي الفلسطينية، واليوم خلص الغرب المتأمرك والمتصهين إلى أن الإسلام هو الخطر القادم، الذي يجب التصدي إليه بكل الآليات فكرية كانت، أو عسكرية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو غير ذلك. وهذا ما أكده أكثر من عالم مستقبليات، ونجد صدى لهذا التفسير عند الكاتب، وبالتحديد في مقدمة الكتاب،

حيث يشير بشكل خاطف إلى أن البعض يعتمد على الأجنبي "المضاد للوطن العراقي، المضاد لأبناء الوطن العربي، المناوئ للرؤية الحضارية الإسلامية الحقة" ص 7. لكن بعد ذلك تغيب تماما هذه الرؤية من باقي أجزاء الكتاب، فيختزل الكاتب الصراع في أنه بين العراقي والأمريكي، وهذا صحيح على مستوى الواقع، لكن على صعيد المرجعيات التي يرتكز عليها العدو والأهداف التي يخطط لها، يبدو الصراع أوسع، حيث ثمة الكثير من المؤشرات على ذلك، نذكر منها:

- قبل الغزو العراقي سعى بوش وأذنابه إلى ربط نظام صدام بالإرهاب وابن لادن، وذلك لتوسيع خارطة الصراع وإخراجها مما هو عراقي أمريكي إلى ما هو إسلامي غربي، حتى يبرر بذلك فعلته الوقحة التي سوف يقدم عليها في العراق، فيلقى آذانا صاغية من بقية الحلفاء والعملاء، وهم يعلمون كل العلم أن صدام لا يمثل الإسلام إلا في جانبه الدعائي، وأنه ساهم بقسط وافر في قهر وإبادة حركات الصحوة الإسلامية بالعراق، فكيف له الآن عقد حلف مع الإسلاميين ومع ابن لادن؟!
- في خضم ضربة 11 سبتمبر 2001 أعلن بوش حربه الصليبية على الإسلام والمسلمين، وهو يعلم أن الإسلام أرقى من أن يختزل في طالبان أو ابن لادن أو غيرهما، فالإسلام يؤمن به أكثر من مليار مسلم موزعين على العالم قاطبة، وغالبية هؤلاء يرفضون الفكر الخارجي في الإسلام، ويتحلون بروح التسامح والتعايش البناء مع كل البشر، لكن رغم ذلك، وانطلاقا من مبادئ مسيحيته الصهيونية أو صهيونيته المسيحية، تَعلَّم أن "وتلك الأيام نداولها بين الناس"، وأن النهاية سوف تكون للإسلام طال الزمن أو

قصر، لذلك عليه بذل أكثر من جهده، لتقليص المد الذي يزاوله الإسلام على كل الصعد، عن طريق حض وحث الغرب بكل أنواع الكذب الدعائي على التصدي لما هو إرهابي/إسلامي!

- لا ينبغي أن نختزل الصراع الدائرة رحاه في العراق بين بوش وصدام، أو بين أمريكا والعراق، إذا كان صدام قد اندحر وأن عهده قد ولى، فإن العراق ما زال شامخا، لا ينظر الغرب الغازي إليه منعزلا عن باقي العالم العربي والإسلامي، بقدرما يحاول عزله عما هو عربي وإسلامي وتجريده من ذلك الدور القيادي، الذي كان سوف يؤديه لو تهيأت له الظروف الديموقراطية المناسبة، ثم إن المقاومة العراقية تنطلق في أغلبها من مرجعيات إسلامية ترى في الجهاد خير أسلوب لمواجهة المحتل، وهذا في حد ذاته يحيل على أن المقاومة المنتهجة يمارسها مجاهدون، باسم الإسلام وليس باسم صدام أو العراق، وهذا ما يمنح الصراع بعدا حضاريا لا تفهم مجرياته إلا في نطاق ذلك الصراع الإسلامي الغربي الموسع.
- وما يزيد هذا الصراع احتداما هو الحضور الصهيوني جنبا إلى جنب مع الغزو المتأمرك، وذلك على كل المستويات والواجهات السياسية والأيديولوجية والعسكرية الإعلامية والثقافية والفكرية، مما يؤكد تلك المقولة التي تنبني على أن من بين العوامل التي كانت وراء غزو العراق وتنحية النظام البعثي، هو ذلك التهديد المستمر الذي كانت تشكله الدولة العراقية لإسرائيل، ونجد معللات ذلك في الكثير من المواقف التاريخية والواقعية، ابتداء من تدمير مفاعل العراق النووي في سنة 1981 من لدن الإسرائيليين، وانتهاء إلى

ذلك الفصل الجلي بين القضية العراقية والقضية الفلسطينية "اللتين تنتميان إلى تكوين قومي وحضاري واحد ومتشابه في كل النقاط الجوهرية" ص 103. هذا بغض النظر عن التطابق اللافت للنظر بين "رؤية كيان الاغتصاب الصهيوني في المرحلة الشارونية مع رؤية الإدارة الأمريكية على كل الصعد المفصلية التي تهم رؤيتها حول المنطقة" ص 62. هذا إن عبر عن شيء، فإنه يعبر عن أن اللوبي الصهيوني الذي ظل يتخفى وراء الكواليس، بدأ اليوم يكشف عن مواقفه العدائية المباشرة التي ترى في الإسلام خطرا محدقا بمشاريعها الاقتصادية والمالية والسياحية، المستندة إلى رؤية توسعية استراتيجية، والمدفوعة بترسانة من القوانين المحبوكة والمطبوخة داخل مجلس الأمن وغيره من المنظمات المشبوهة، وهي مواقف رغم أنها تبدو مكسوة بالغطرسة والهيمنة، فإنها تنطوي على خوف تاريخي من حقيقة الإسلام التي بدأت تعري عن نوايا الصهيونية وزيف العولمة الأمريكية.

مقاربة موضوعية لكتاب انهيار الصنم[1]

للكاتب التونسي د. خالد شوكات

بين يدي الكتاب

انشغلت أثناء الأيام الأخيرة بقراءة كتاب جديد، صدر عن منشورات البرنامج الثقافي العربي بهولندا، كما هو مثبت على غلاف الكتاب، وهو يحمل عنوانا رئيسا هو انهيار الصنم، عندما تقرأ عبارة العنوان هذه المكتوبة بخط أحمر غليظ تحسبها عنوانا لعمل أدبي؛ شعريا كان أو روائيا أو غير ذلك، لكن بمجرد ما تتأمل ذلك العنوان الثانوي الذي يلي العنوان الأول في شكل عبارة تفسيرية وهي: مساهمات في خطاب الإصلاح والتنمية. تتأكد من أن هذا الكتاب إنما هو عمل فكري يتناول قضايا شتى، تتراوح بين ما هو سياسي وما هو صحافي، بين ما هو محلي وما هو عالمي، بين ما هو آني وما هو صير وري وغير ذلك. وقد تم صدوره في غضون هذا العام (2004)، لذلك يمكن اعتباره من الوهلة الأولى سباقا إلى متابعة ورصد العديد من المستجدات والأحداث الطارئة، سواء أداخل المشهد السياسي العربي والإسلامي أم على الصعيد العالمي. وهو يتضمن مقدمة وحوالي خمسة عشر مقالا، نشر أغلبها، كما يشير الكاتب، قبل أن تجد طريقها إلى هذا الكتاب في بعض المنابر العربية، مثل صحيفتي الحياة والقدس العربي الصادرتين من لندن وجريدة السياسة الكويتية، وذلك خلال السنتين الأخيرتين 2003 و 2004.

تتضافر مقالات هذا الكتاب وأجزاؤه، رغم تباين مضامينها وتعدد طرائق أدائها وتشكيلها، لتوحيد أفكار ونظرات الكاتب ولحمها في

[1] انهيار الصنم مساهمات في خطاب الإصلاح والتنمية، د. خالد شوكات، منشورات البرنامج الثقافي العربي هولندا، 2004

رؤية واحدة تطبع أغلب الفقرات، ويوفق بين ثناياها خيط خفي يمكن استنباطه من عنوان الكتاب، الذي يوحي بأكثر من دلالة رمزية؛ فانهيار الصنم هو في حد ذاته انهيار للرؤية الأحادية المبنية على الاستبداد والوصاية، مما يوفر أرضا خصبة ملائمة لاستنبات بذور الحرية والديمقراطية والعدالة وغيرها من المعاني الإنسانية الرفيعة. فالصنم هنا يمنحه الكاتب شحنة استعارية، عندما يرى أن سقوط صدام حسين، من جهة أولى، ما هو إلا سقوط صنم اتخذته الملايين من الشعب العراقي والجماهير الإسلامية، إما خوفا من بطشه، أو إعجابا بعنتريته، أو انخداعا لأكاذيبه وأراجيفه، رمزا للبطولة والخلاص والشهامة، ومن جهة أخرى تشكل هذه الواقعة في نظر الكاتب فاصلا بين زمن ساد فيه الظلم والاستبداد والاضطهاد، وزمن آت يبشر بالخير والانفراج والنماء، كما أن سقوط هذا الصنم هو بداية لسقوط أصنام أخرى، مبثوثة في كل أرجاء الوطن العربي والإسلامي. لعمري إنها صورة مجازية في غاية الحبك والمماثلة لما هو عليه الواقع الإسلامي، وما زاد هذا تعبيرا أكثر هي تلك الصورة الموضوعة تحت العنوان حيث يبدو تمثال صدام وهو يتهاوى!

إذن، فالقاسم المشترك بين المقالات والتيمات التي أودعها الكاتب مؤلفه، هو ذلك الهم الثقيل الذي يتجشمه كل مثقف مسؤول، ديدنه خدمة قضايا أمته ورفع معاناة شعبه ولو مقابل التضحية بحياته، فالكاتب هنا يحلم بأن يفيق فيجد أمته العربية والإسلامية، قد تخلصت من معاني الاسترقاق والتخلف والأمية والتطرف و هلم جرا، لذلك نراه ينساق وراء وقع مصطلحات، كالديمقراطية والوسطية والإصلاح والتنمية ونحو ذلك، متأسفا على آونة الاستبداد التي نوجد فيها حيث تتلاشى هذه المصطلحات، أمام عصا الديكتاتوريات العربية والإسلامية المتناسلة كنبات الفطر، على

جغرافيا الجسد العربي والإسلامي، فيتلاشى معها كل أمل في التغيير أو التحديث.

رغم هذه الوضعية السوداوية الملبدة بغيوم الجور والاستبداد والتنكيل، تظل رؤيته للأمور والقضايا جد متفائلة، لذلك كان تناوله بشكل أو بآخر متوازنا، سواء أمن خلال منحه الأهمية لكل مكونات وشعوب العالم العربي والإسلامي، من فلسطينيين وعراقيين وأكراد وإيرانيين ومغاربة وغيرهم، أم من خلال رصد كل المستجدات والوقائع التي تمس شرف العرب والمسلمين، عبر كل أنحاء الكرة الرضية كوضعية المسلمين بالغرب، وخرق حقوق الإنسان بالعالم العربي، وتدهور الوضع الاجتماعي والاقتصادي في الدول العربية وغير ذلك. وهو يحاول حين تناوله هذه الجوانب أن يوصلها بالقضية الأم حيث يمكن اعتبار أن أغلب الموضوعات الرئيسة والجانبية، تتفرع عن حدث سقوط الصنم أو سقوط عقلية الصنم المأخوذة بالاستبداد والاضطهاد والتسلط.

يمكن الآن التسليم بأن الرؤية حول الكتاب وما يحويه بين دفتيه قد بدأت تتضح، لكن الاتضاح الكامل لن يتسنى لنا إلا إذا عرفنا من الذي شكل معالم وعوالم هذه النظرة الفكرية، ونسج خيوط هذه القضايا المتشابكة، ولعل الرؤية التي طبعت تناول موضوعات الكتاب، كفيلة بأن تعرفنا بشكل أو بآخر بصاحب هذه المبادرة، فهو ليس علماني رغم أنه دافع عن العلمانية الإيجابية، وهو ليس قومي رغم أنه جابه لأجل القومية العربية، التي يمكن اعتبارها عصب هوية الإنسان العربي، وهو ليس إسلاموي رغم أنه صان حرمة الإسلام وشرفه، وهو ليس ليبرالي رغم أنه مهووس بالليبرالية الغربية الناضجة... والله حرت في تسمية أو تصنيف هذا الكاتب الذي يأبى أن يدرج في أي خانة أو تحت أي عنوان! فهو في نظري يأخذ من كل شئ بطرف، فيستفيد من كل التوجهات

السياسية والفكرية، إذ يستوحي من الإسلام روحه وأخلاقه، وينهل من العروبة لغتها وتراثها، ويتعلم من العلمانية نظم الحياة وأساليبها، ويأخذ من الليبرالية عدالتها وديمقراطيتها، ويرهن بالوطنية انتماءه وولاءه، كل هذا يتبلور في إطار من الوسطية التي بها وفي خضمها يتشكل كل مشروع ديمقراطي حقيقي، هكذا يبدو لي، إذن، صاحب هذا الكتاب؛ المثقف التونسي د. خالد شوكات.

بين تعدد الموضوعات وثبات الرؤية

إن الملاحظة الأولى التي يمكن أن يستنبطها قارئ هذا الكتاب، هي أنه مسكون بالتنوع، سواء في الموضوعات الغنية التي يتضمنها ابتداء من قضايا العراق ومحنه، مرورا بقضايا الأكراد والعلمانية والمسلمين في الغرب وغيرها، وصولا إلى الملف التونسي، أم في أساليب تشكيل المقالات وكتابتها من حيث التعابير والحجم والمعجم وغير ذلك، أم في المنطلقات التي يستند إليها الكاتب في تحبير أفكاره ومقاربة مستجدات الواقع، وهذا أمر جد طبيعي ما دام الكتاب تجميعا لعديد من المقالات التي تناولت تيمات مختلفة وعبر فترات متباينة، وتجدر الإشارة هنا كذلك إلى أن المنطلقات رغم تعددها، فالكاتب يجانب الوقوع في أي تناقض مع أفكاره أو نقض لطروحه، وهذه ميزة لافتة للنظر إذ قلما يفلح الكاتب، في الحفاظ على مبدئية فكره وثبات المرجعيات التي يؤمن بها، وقد أشار د. خالد شوكات في المقدمة إلى أن مشروعه يبشر بخطاب وسطي واقعي وتوفيقي بين مقاربات، كثيرا ما صورت على أنها متناقضة. ص 11. حقا قد يبدو هذا التصور في البداية صحيحا، لكن بعد التمعن يتبدد ذلك التناقض المزعوم، ما دام الكاتب، حسب ما استوعبت، يوفق ليس بين الأنساق المتنافرة، كالإسلام والديمقراطية على سبيل المثال، ولكن بين القواسم الإيجابية المشتركة بين هذه

الأنساق، والتي من شأنها أن تخدم الإنسان وتسعده، كالعدالة والمساواة والتعاون ونحو ذلك من المفاهيم التي يتقاسمها كل من الإسلام والديمقراطية.

يضمن الكاتب مؤلفه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، شتيتا من الموضوعات التي رغم منطق الاختلاف الذي يحكم منطلقاتها ومحتوياتها وأبعادها، فإنها تصب كلها في اتجاه واحد هو أزمة الإنسان العربي والمسلم، فالكاتب يحاول من خلال كل موضوع أو عنوان إماطة اللثام عن الكيفية التي يتبلور بها، أي الموضوع أو قضيته، في السياق العربي أو الإسلامي؛ فالديمقراطية التي وصلت أوجها عند الغرب، تحيل على الاستبداد الذي وصل أوجه عند العرب والمسلمين، والإصلاح الذي تدرجت فيه المجتمعات الغربية أرقى مراتب التطور والازدهار، ينعدم بالمرة في برامج الأنظمة العربية، والتنمية التي مست في الغرب جميع نواحي الحياة، لا تعدو أن تكون في مجتمعاتنا الثالثية مجرد شعارات جوفاء، والوسطية التي تمثلت في كل أنماط الحياة وقوالب التفكير عند الغرب، استبدلت عندنا بالذي هو أدنى؛ بالتطرف والغلو وما شاكل ذلك.

الديمقراطية مفتاح التنمية والنهوض

حتى تنهض شعوبنا التي خدرتها الأنظمة، وتنفض عنها غبار التخلف، لا بد من أن تخوض معركة الديمقراطية بمفهومها الحضاري لا الشعاراتي، يقول الكاتب في الصفحة 11 من مقدمة الكتاب: "كما وجدتني أكره عقلية المؤامرة وبناء التوجهات على أساس سوء النية، مثلما وجدتني أزداد قناعة بأن معركة الأمة الرئيسية هي معركة الديمقراطية، فإقامة أنظمة ديمقراطية وحدها يمكن أن تساعدنا على ربح معاركنا في تحقيق الاتحاد والنهوض

بالاقتصاد وتحرير أراضينا المحتلة". ثم إن ما يحدث الآن في العالم العربي (نموذج العراق)، هو مؤشر حقيقي على أننا بدأنا ولو نسبيا نتخلص من عقلية الصنم والوصاية، التي انتصبت لعقود طويلة في وجه الاستفادة من ديمقراطية الدول الديمقراطية. وهو لما يتحدث عن الديمقراطية إنما يعني بذلك تلك النظم، التي بلغت الذروة في حماية الإنسان عن طريق شتى الآليات القانونية، التي تضمن حقوقه المختلفة في إطار من حرية الرأي والمساواة والتعاون، حتى يصبح الوطن متسعا لكل أبنائه!

على هذا الأساس، يتأكد إذن أن تحقيق التنمية الشاملة والإصلاح الجذري لا بد له أن يمر عبر بوابة الديمقراطية، ولو أن ثمة في مجتمعاتنا أكثر من صوت رسمي أو غير رسمي، يدعي تبني النهج الديمقراطي، غير أنه لا يتخطى الجانب الشكلي والدعائي، الذي يتخذ، في غالب الأحيان، طابعا مرحليا، سرعان ما يخمد بمجرد ما تنقضي تلك المرحلة التي شهدت ظهور وتعالي تلك الأصوات.

الخلاصة إذن، أننا من غير تحقيق الديمقراطية بمفهومها المتعارف عليه في العالم الغربي المتقدم، لن نتمكن من تحقيق التنمية والإصلاح كذلك بمفهومهما الحقيقي، الذي لا يعني فقط تلك التنمية السطحية التي يتبناها أكثر من نظام عربي، والتي تتجلى في ما هو اقتصادي (معامل، شركات، تكنولوجيا...)، أو سياسي (برلمان، انتخابات...) وغير ذلك، بقدرما يدل على تنمية الإنسان في أبعاده المختلفة؛ تنميته فكريا حيث ينال حظه من التعليم والتربية المتوازنة، وجسديا حيث يحظى بنصيبه من العيش الكريم وغير ذلك، بمجرد ما تحقق شعوبنا هذه الجوانب الأولية من التنمية ذات المنحى الذاتي والفكري والوجودي، يينع في عقولها ذلك الوعي الإيجابي بما هو اجتماعي وثقافي وسياسي واقتصادي وهلم جرا، فتصبح أكثر استعدادا لتقبل النظام الديمقراطي، وأكثر استجابة

لتغيير طرائق تفكيرها التقليدية، إلى طرائق تتلاءم ومبادئ الديمقراطية والحرية والعدالة ونحو ذلك.

العلمانية في خدمة الدين!

ما تعلمناه في المدارس العربية هو أن العلمانية عاهة خبيثة، تسللت، كما الماركسية والشيوعية، إلى مجتمعاتنا الإسلامية عن طريق بعض المفكرين/الخوارج! فهي تسعى إلى تبديد ما هو ديني وطرده من منظومتنا الحياتية إلى زاوية قصية، بعيدا عن أي تأثير في المجتمع وأنساقه المختلفة، في هذا الصدد يحاول الكاتب جاهدا تصحيح هذه الرؤية التقزيمية لما هو علماني، موضحا الجانب الإيجابي في هذا التوجه الإنساني الذي لا يضاد الدين ولا يعاديه، فهو يرى أن ثمة خلطا بين العلمانية واللادينية، "فالعلمانية تعني ببساطة فصل الدين عن الدولة، وتطبيقها العملي "أنسنة" السياسة، أي جعل شؤون الحكم مباراة سلمية بين ساسة بشر لا كهنوت يزعمون العصمة بينهم، أما اللادينية فهي عقيدة دينية في حد ذاتها، لا يؤمن أتباعها بعالم ما وراء الطبيعة، أي بوجود إله واحد أو آلهة متعددة، ويعتقدون بأن الإنسان نتاج الطبيعة، وله الحق في فرض سيادته عليها، كما من حقه أن يحدد لنفسه وفقا لإملاءات عقله سيرته ومعالم حركته". ص 76

كما يعتقد أن النهج العلماني من شأنه أن يضمن سلامة الدين، فهو يحميه من تدنيس السياسي والدنيوي، حيث يبقى الدين بعيدا عن أي استغلال أو استخدام لأغراض أيديولوجية زائلة، ومصالح شخصية فانية، فالعلمانية "تعتبر البيئة الأكثر ملاءمة لنشأة تدين حقيقي ومؤسسات دينية مخلصة تهدف إلى مساعدة المجتمع على الارتقاء بقيمة الأخلاق ونشر روح الفضيلة والأخوة الإنسانية بين أفراده،

بعيدا عن أي شبهة أو نفاق أو مصلحة شخصية أو فئوية ضيقة" ص 67. يبدو أن هذا التفسير الذي يفسره الكاتب منطقي ينبني على فهم واقعي للأمور، لكن على مستوى التنفيذ يصعب تبني مثل هذا التفسير، لأن الواقع العربي ليس هو الواقع الغربي، والإسلام ليس هو المسيحية أو اليهودية، وحتى بنية التفكير في عالمنا ليست كمثل التي تسود عند الآخر.

ثم إن ليس بإمكان الواقع العربي المنخور بالجهل والأمية استيعاب النموذج العلماني، الذي يحتاج إلى أرضية خصبة تتقبل مفاهيم الديمقراطية والحرية والعدالة... حيث بغير تحقيق أو توفير مثل هذه المفاهيم تموت نبتة العلمانية! كما أن الإسلام، برأيي، يملك القدرة على الديمومة والتجدد في كل زمان ومكان، فالعيب لا يكمن فيه، وإنما في الذي يؤمن به ولا يعرف كيف يترجم مبادئه إلى الواقع، وإن كان الأمر كذلك فلماذا نستبدله بالعلمانية أو بغيره، ونحن نعلم أن العلمانية طرحت الدين في المجتمعات الغربية لأنه – أي الدين– كان قد استنفد طاقته على الديمومة والتجدد، لذلك أعتقد أن الأجدى لنا أن نستفيد من النظام العلماني بحكمة وترو، ونأخذ منه ما ينفعنا ولا يضرنا، كما يقول الإمام محمد عبده رحمه الله في سياق آخر. وهذا أمر محمود في الثقافة الإسلامية التي استطاعت عبر تعاقب العصور أن تغني منظومتها بمكونات ثقافية وسياسية وحضارية خارجية، ساهمت بشكل أو بآخر في تشكيل معالم وأمجاد الحضارة الإسلامية، أضف إلى ذلك أن بنية التفكير عند الإنسان العربي والمسلم مجبولة على نمط اعتقادي، يحضر فيه الإسلام بكثافة واستمرارية، حيث من الصعوبة بمكان أن يتقبل انفصالا للدين عن السياسة، في الوقت الذي تأمل فيه الغالبية الساحقة من المسلمين عودة الدين إلى سدة الحكم، فهو مخلصها الوحيد، كما تعتقد، من هذا التردي الرهيب!

الوسطية هي الحل

ينطلق الكاتب من الحالة التونسية ليثبت أن الوسطية هي النهج القويم، الذي من شأنه أن يوفر التربة الملائمة لاستتبات التجربة الديمقراطية، فالمشروع الديمقراطي، حسب رأيه، يرتبط بوجود تيار وسطي قوي، وقد دلل على ذلك بنماذج مختلفة، سواء في الغرب حيث قامت الديمقراطية الأوربية سياسيا على أساس برامج أحزاب الوسط بشقيه اليميني واليساري، أو في تونس حيث حافظت الحركة الوطنية التونسية على هذه الوسطية، وغذتها بتجارب متنوعة تجلت، فيما تجلت، في الدستور التونسي الذي كرس الطبيعة الجامعة للهوية التونسية بأبعادها الوطنية والعربية والإسلامية، ثم تمثلت تلك الوسطية في إقامة نظم تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية، هدفت في مجملها إلى تنمية الطبقة الوسطى داخل المجتمع التونسي، لكن للأسف تراجعت هذه الوسطية بمرض الرئيس الحبيب بورقيبة حيث تولى الحكم أناس، وجهوا البلاد وجهة مغايرة لما كانت عليه من الوسطية.

بعدما شخص الكاتب حالة تونس، التي تفتقر الآن إلى النهج الوسطي، الذي قد يسهم في إخراجها من قمقم الاستبداد والديكتاتورية، يخلص من ذلك إلى طرح نموذج متفرد مبني على أساس الوسطية، ويسعى إلى تجديد تيار الوسط التونسي، ويتجسد هذا النموذج في المركز التونسي للديمقراطية والتنمية، ويتزعمه صفوة من الوطنيين التونسيين (من بينهم مؤلف الكتاب)، الذين يقدمون مشروعا متكامل الأبعاد، يولي اهتماما لكل جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك، دون تغييب للهوية التونسية التي تستمد قيمتها وشرعيتها من ثالوث: الوطنية، العروبة والإسلام. هذا يتم في إطار النظام الديمقراطي بوصفه

أفضل النظم السياسية وأكثرها تناسبا مع كرامة الإنسان وقدرة على تحقيق التنمية.

بقيت ملاحظة أساسية تقترن بنية الكاتب وراء إصدار هذا الكتاب، حيث استنبطت في آخر المطاف أن د. خالد شوكات يضمن كتابه مشروعا هاما هو بمثابة البديل الناجع للخروج بالشعوب العربية والإسلامية من دائرة الأزمة إلى نطاق الانفراج والخلاص، من ظلمات الاستبداد إلى نور الحرية والعدالة. فهو يعتقد أن انهيار الصنم إنما هو بشارة هامة تحمل الخير والأمل للعرب والمسلمين، لذلك نراه يبدأ كتابه بالكلام على هذه الواقعة وما يمت إليها بصلة، ثم يمضي بعد ذلك في التطرق للعديد من القضايا المصيرية التي ينبغي أن ينتبه إليها الإنسان العربي والمسلم ويعيها، لأن بمجرد ما ننتهي من فهم هذه القضايا وحلها نكون قد وضعنا القطار الذي يقلنا على سكة التنمية والإصلاح، هذه السكة التي راح يساهم في بنائها وتشييدها ثلة من المثقفين الغيورين (يمكن أن ندرج هنا مشروع المركز التونسي للديمقراطية والتنمية) الذين يتوزعون عبر مختلف بقاع الكرة الأرضية.

إنه الشعب الأهوازي المغوار!

هل تعلم أن ثمة شعبا عربيا يوجد خارج جدران الأوطان العربية، لكنه يعبق أكثر من أي شعب عربي آخر بأريج العروبة، ويأبى دمه الأصيل أن يتبدد في دم آخر تزيفه الأيديولوجيا والغطرسة والصلف!

تعجب إذن، لما ترى عربا ذوي أوطان معولمة، يتنكرون لأبناء جلدتهم، بل ولا يأخذهم شعور الإباء، الذي كان يأخذ العربي الجاهلي، وبالأحرى العربي المسلم..

تعجب لما لا تسمع صوتا يبوح بأن ثمة شعبا عربيا يسكن خارج البيت العربي.. شعبا عربيا اكتفى بذاته في مجابهة الشيطان.. شعبا عربيا لم يدخل بعد أجندة الجامعة العربية، وكيف له أن يدخل أجندة الأنظمة العربية التي امتلأت على آخرها بالاتفاقيات والعلاقات العربية الإسرائيلية!

تعجب إذن، وتسأل؛ كيف يحدث هذا في زمن التكتل العربي المتشرذم، وهو تكتل مشروط بأن تكون مواطنا وطنيا ليس كالوطنيين الآخرين، مواطنا وطنيا لا يسبب الشغب في الداخل، ولا يجلب الشغب من الخارج، وإن كانت وطنيتك تخالف هذا المفهوم؛ **فأنت إرهابي أو غير عربي!**

*****

هل تعرف شيئا عن شعب عربي، غير مرسوم على الخريطة العربية، لكنه يلهج كأي شعب عربي أو أكثر بالعروبة! أتدرون من هو هذا الشعب؟

إن اسمه يبدأ بالحرف الأول من الأبجدية العربية..

إن شعبه ينقش بدمه الفوار مجد العروبة المغتال، على أسوار فارس التي راحت تعود إلى عادتها القديمة!

إن نخله السامق يتاخم خلف جدار العروبة الذي انهار، لكنه لم يحرر ذلك الشعب الأبي..

أتدرون من هو هذا الشعب؟

إنه شعب إن كان لا يسكن مؤقتا الخريطة العربية، فهو يسكن في عيون الملايين من الناس، الذين لم يتسولوا على باب الجامعة العربية، لأنهم يعلمون أنها أبخل من بخلاء الجاحظ!

ولم يستعطفوا الحكام العرب، لأنهم يسمعون أنهم أظلم من فراعنة الزمن الغابر!

*****

هل تمكنت من حل هذا اللغز..

حاول البحث فورا عن شعب ينتفض الآن في وجه الطاغوت، ربما لن تجد خبرا حول ذلك عبر شاشات الزمن العربي، المشغولة بالفيديو كليب، والمسلسلات الطويلة التي لا تريد أن تنقضي، والجدالات الساخنة التي لا تريد أن تنطفئ..

لكن لا تيأس، حاول التنقيب من جديد...

أكيد، سوف تعلم قبل أن تأوي إلى فراش نومك، أن انتفاضة باسم العروبة النقية الصافية قد بدأت، لكن ليس في ديار العروبة، وإنما خارجها..

أن ثمة دماء فوارة تسيل، وأهازيج عربية تشدو بالنصر، وشهداء يتساقطون، و...

قد لا تصدقني، قد تحسبني أهذي، أو أقول ما يشبه الهراء..

لكن صدقني هذه المرة فقط، وتابع أنباء هذا اليوم ولو في قناة لا تعجبك، حتى تكتشف ذلك الشعب العربي الذي يسكن خارج الخريطة العربية.

*****

هل تابعت الأخبار؟

هل أدى بحثك إلى نتيجة ما؟

أنا أثق في قدرتك..

فما هو إذن، حل اللغز الذي كنت قد وضعته؟

فما هو إذن اسم ذلك الشعب العربي الذي لم تعترف به بعد لا الجامعة ولا الأنظمة ولا الإعلام العربي؟

فهل حقا يبدأ بأول حرف من الأبجدية العربية؟

فمن هو إذن هذا الشعب؟

- إنه الشعب الأهوازي المغوار!

أسطورة الجلاد الذي أصبح قربانا للوطن!

هكذا اختار البيت الأبيض تاريخا دقيقا لنهاية صدام، تزامن مع أعز يوم لدى المسلمين، ألا وهو عيد الأضحى المبارك، الذي يحسب له ألف حساب في العقيدة الإسلامية، نظرا إلى الحمولة الرمزية التي ينطوي عليها، وهي حمولة ذات أبعاد متعددة، تحيل على قصة أبينا إبراهيم مع ابنه البار إسماعيل عليهما السلام، وعلى مجريات من تاريخ الدعوة المحمدية، وعلى ركن أساس من أركان الإسلام وهي شعيرة الحج، وعلى التلاقي الإيماني الذي يعقده المسلمون مرة في العام كله، بل ومرة في العمر كله، وغير ذلك من الأبعاد.
كأنما في ذلك استعارة مجازية توحي بأن في الوقت الذي سوف يضحي فيه المسلمون عبر مختلف بقاع الكرة الأرضية بأضحيات العيد، وما يواكب ذلك من احتفالات وأفراح، تتبادل فيها الزيارات والهدايا وما إلى ذلك، كذلك سوف يضحي الأعداء ومن يدور في فلكهم من عملاء وأزلام، بأضحيتهم التي هي من طبيعة إنسانية لا حيوانية، فيفرحون ويرقصون على إيقاع النشيد الوطني الأمريكي، الذي عنوانه، العلم ذو الأنجم المتلألئة (The Star Spangled Banner)، وقد كتب من قبل الوكيل فرانسيس سكوت كي عام 1814، الذي استوحاه من حرب 1812 بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وقد أصبح منذ 1931 النشيد الرسمي للولايات المتحدة الأمريكية، وهو يتألف من أربعة مقاطع، وسوف نكتفي بالمقطع الأول من نص النشيد، محاولين ترجمة معانيه إلى اللغة العربية:

آه، قل: هل ترى،
في ضوء الفجر المبكر،

ما حييناه بكبرياء

في شفق الوميض الأخير؟

حيث خطوطه العريضة ونجومه اللامعة،

طوال العراك الخطير،

فوق المتراس الذي نراقبه

كانت تنساب في بسالة.

وتوهج الصواريخ الحمراء

وانفجار القنابل عبر الفضاء

دلتنا طوال الليل

أن علمنا ما يزال هناك.

آه، قل هل مازال يرفرف

ذلك العلم ذو الأنجم المتلألئة

فوق بلاد الأحرار

ووطن الشجعان؟

وهو نشيد يفسر بشكل جلي طبيعة الفكر الذي تحمله الطغمة الأمريكية الحاكمة، منذ ما ينيف على سبعة عقود زمنية، حيث كتب هذا النص، الذي سوف تردده، انطلاقا من ثلاثينيات القرن الماضي، مختلف الأجيال التي شهدها المجتمع الأمريكي، وهي لا تأبه بفحوى العبارات التي تلهج بها ألسنتها، وهي مشربة بمعاني الحرب، التي ماهي إلا وسيلة العاجزين عن إيجاد وخلق الحلول الوسطية والسلمية، وهذا ما انطبع به التاريخ الأمريكي منذ أن وطأت رجل أول أوروبي أرض العالم الجديد، فشرع في إبادة السكان الأصليين، الذين هم الهنود الحمر، بشجاعة وقحة ووقاحة شجاعة، لينصب الأوربيون الغزاة رايتهم المخضبة بدم الهنود على أرض ليست أرضهم، إلا بالغصب والسرقة، فينعتونها كما تردد

خاتمة النشيد الوطني الأمريكي، التي تتكرر في نهاية كل مقطع: بلاد الأحرار، ووطن الشجعان! فأي أحرار هؤلاء الذين أبادوا الشعوب الأصلية واسترقوها؟ وأي شجعان هؤلاء الذين شيدوا بالظلم المقنن أسطورة هذا الوطن المزيف؟

ثم إن هذا النشيد المستوحى من حرب 1812 بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، يعبر عن مدى إيمان الحكام الأمريكيين بمضامينه التي تتغنى بالكبرياء والغطرسة الأمريكية، التي لا تتحقق إلا عبر التقاتل والخداع والغدر، فعوض ما نقرأ في هذا النص الذي يتردد باستمرار في شتى الميادين والأندية، من مدارس وقاعات رياضية ولقاءات رسمية وغير ذلك، أشياء جميلة عن الجوانب الحضارية الحقة والمناقب الأخلاقية السمحة للشعب الأمريكي العظيم، وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى، فها نحن لا نصيخ إلا لوقع الخطر والصواريخ الحمراء والقنابل المتفجرة ونحو ذلك، وهو نفسه ما حصل في اليابان والفيتنام وكوريا وأفغانستان وفلسطين والعراق واللائحة طويلة!

لكن راعي البقر التقليدي مازال مستغرقا في صلفه، وقد حفت به مجموعة من البيادق الهشة المبرمجة وفق نرجسية الحاكم الأمريكي، الذي يتصرف بشبه ألوهية ينقاد إليها كل من ينبذهم الوطن، من ضعاف النفوس والعزيمة، الذين صارت الأوطان التي استردت بدماء الأجداد وأرواحهم الزكية، ألعوبة بين أيديهم النجسة، يتلهون بها مع أسيادهم الغربيين المتصهينين، كما يتلهى المقامرون بلعبة الورق أو النرد أو غيرهما.

كما تمت الإشارة، قد ضحى العدو وعملاؤه في أعز يوم للمسلمين بأضحيتهم، وعلى مرأى من العالم، وفي اختيار هذا التوقيت دلالة

واضحة على مدى خبث المخطط الأمريكي في العراق، وتسليم منفذيه من أبناء العراق المتواطئين معه بذلك في شماتة جلية، والشماتة، كما يقول المثل، بالمنكوب لؤم، يتداعى بنا إلى حقبة الاستعمار الأوروبي التقليدي للعالم، حيث كان ينشط العملاء والمنافقون والخونة وأثرياء الحرب، الذين ساهموا في التوقيع على اتفاقيات الاستعمار والحماية، في الوقت الذي كانت فيه بنادق المجاهدين الحقيقيين تزغرد في كل شبر من الوطن، وأرواح الوطنيين الصامدين تزهق في المقاصل والمشانق لتقدم قربانا للوطن! لذلك سقنا صورة استعارية لهذا المشهد الأليم، عندما رأينا أن الرئيس العراقي السابق صدام حسين أعدم أو ضحي به في يوم عيد الأضحى على إيقاع النشيد الوطني الأمريكي، في حين كان ملايين المسلمين يضحون بأضحياتهم على إيقاع التلبية والتكبير والتهليل والتحميد، وهذا لا يعني أن النشيد الوطني الأمريكي نفسه قد ردد أثناء عملية الشنق، وإنما أبعاده الدلالية كانت حاضرة بقوة في المشهد نفسه، حيث الرئيس؛ رمز الوطن الأصلي يعدم في ضوء الفجر المبكر، مما سوف يشكل مأساة لأي وطني عادي، في حين سوف يحياه العدو وبيادقه بكبرياء، كما نقرأ في الأسطر الأولى من نص النشيد، ثم إن العراك الخطير الذي تتبىء البنية الدلالية للنشيد بأنه سوف يزول بالانتصار، ليرفرف العلم في بهاء على أرض الأحرار، يبدو في هذا السياق الجديد للحرب الأمريكية في العراق أنه سوف يمتد إلى ما لا نهاية، فيصير العراك على أشده، ويصبح الوطن مستنقعا منفتحا على المجهول، الذي يعد بالبياب والفتن والاحتراق، ومن أوقد نار الفتنة احترق بها!

إن مشهد الإعدام الذي استفاقت عليه الأمة الإسلامية في يوم عيدها، يشكل بالنسبة إلى الضحية/صدام نهاية سعيدة، تجعل منه

أسطورة فريدة من نوعها في التاريخ الإنساني، لأنه قلما نصادف أن من كان يعتبر طاغوتا انتهت حياته هكذا، بصمود إلى آخر رمق في حياته، فأغلب الطواغيت اختاروا، إما أن ينتحروا في لحظة انهزامهم كما صنع هتلر وغيره، وإما أن يتنازلوا عن تحديهم مقابل حفنة من المصالح الدنيوية الزائلة، فكان بمقدور صدام أن ينتحر عندما أدرك أنه باء بالسقوط والفشل، أو أن يذعن لمطالب العدو ومغرياته، فيتنازل عن وطنه مقابل قصر جميل وراتب سمين وجوار حسان وغير ذلك، في أي مكان يحبه من المعمورة، بيد أنه فضل ألا يبيع وطنه، وأن يجاهد إلى آخر ثانية من عمره، وقد انطبق عليه بيت الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ... وألا أرى غيري له الدهر مالكا

ثم إن هذا الحدث الذي شكل بنوع من الإجماع الشعبي إهانة جديدة للمسلمين، تنضاف إلى حلقات سابقة من الحرب المعنوية التي يشنها الغرب على الإسلام، عقيدة وتاريخا ورموزا، قوبل بالشجب التام من لدن مختلف الجهات الأجنبية، سواء أكانت سياسية أم فكرية أم حقوقية أم غير ذلك، في حين ما فتئت تعتصم أغلب الجهات العربية والإسلامية، بما في ذلك أغلب علماء الأمة، بحبل الصمت، الذي ينطوي عن رضى بالمذلة التي نتخبط فيها، فلم تحرك ساكنا لمشهد مسلم يشنق على طريقة الكوبوي، وهو يردد الشهادتين في تحد وعلو، فلعل ذلك من شأنه أن يكفر عن تاريخه الملبد بالشرور، ومن ثم يلقن الإنسانية درسا جديدا في الصمود والتضحية من أجل الدين والوطن.

غير أنه في مقابل ذلك، كشفت آخر صور مشهد الإعدام التي تناقلتها مختلف وسائل الإعلام المرئية والرقمية، مدى نذالة الجلادين الذين أنيطت بهم مهمة شنق الضحية، عندما راحوا يشمتون بها وهم يرددون ما معناه: إلى الجحيم، وهم يدرون أن

مصير الإنسان لا يفصل فيه إلا الله سبحانه وتعالى، فرب شرير آثم كتب له أن يفوز بالجنة، ورب مسلم كنا نحسبه صادقا سجر في النار! فالاعتبار ينبغي أن يكون بنهايات الأمور وعواقبها، والأنكى من ذلك أن تلك الصور أناطت اللثام عن فضيحة تواطؤ شيعة العراق مع العدو في قضية إعدام صدام، وإلا فلماذا راح الجلادون يهتفون باسم مقتدى الصدر، ويرددون يعيش محمد باقر الصدر؟ مما سوف يفتح، لا محالة، باب الطائفية في العراق على مصراعيه، لأن مثل هذا الموقف الذي تنم عنه هذه الصور المسربة، من شأنه أن يزرع مزيدا من الكراهية والضغينة بين سنة العراق وشيعتها، لاسيما وأنها تكشف مما لا غبار عليه عن أيديولوجية الجلادين الشيعية!

الكاتب

* ولد في أول يناير 1973 بقرية الدريوش/إقليم الناظور بشمال المغرب

* درس اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة محمد الأول بوجدة

* تلقى تكوينا خاصا بأساتذة الدين الإسلامي بكلية التربية بأمستردام

* حاز شهادة التمكن من اللغة الهولندية، تشرف عليها مؤسسة إ ب خروب – وزارة التعليم – هولندا

* نال شهادة الماجستير تخصص نقد أدبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة الحرة، دينهاخ – هولندا

* نال شهادة الماجستير تخصص اللغة والأدب، الأكاديمية العليا للعلوم الإنسانية، التابعة لوزارة التعليم العالي– بلجيكا

* نال شهادة الدكتوراه في موضوع تاريخ الصحافة الأمازيغية المكتوبة من جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام.

* يهتم بمختلف قضايا المسلمين بالغرب، وله كتاب (المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل)، صدر عام 2006 عن مركز الحضارة العربية بمصر.

* يهتم بالقضية الأمازيغية وقد صدر له كتاب:

– الإسلام والأمازيغية؛ نحو فهم وسطي للقضية الأمازيغية، عن دار النشر أفريقيا الشرق/2008.

* يهتم بمختلف القضايا الفكرية والسياسية، وله إصداران:

– الموت على طريقة الكوبوي، مركز الحضارة العربية، مصر/2008

– الإسلام– فوبيا صناعة صهيونية تسوق في الغرب، مركز الحضارة العربية، مصر/2008

* يبدع في مجال الشعر العربي والأمازيغي، وله مجموعات شعرية مخطوطة (وهي قيد الطبع والنشر) منها:

- إرهاصات
- قصائد متمردة
- في مهب اليتم
- الطين يعشب حزنا في وطني
- أسنان (الشوك)/شعر أمازيغي

* يبدع في مجال السرد، وله مجموعات مخطوطة بعنوان:

- من السماء إلى الأرض
- البرتقال الصامت
- الطريق إلى أمستردام

* يكتب في مجال النقد الأدبي وقد تناول بعض القضايا الأدبية والشعرية بالدرس والتفسير، وهي إما منشورة في شكل مقالات متفرقة، أو ما تزال على شكل مسودات.

* يشارك في إعداد بعض المناهج والكتب الدراسية الخاصة بالصحافة والإعلام الأمازيغي، في جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام، ومنها:

- الصحافة الأمازيغية المكتوبة، صدر عن الجامعة 2007
- فن الإعلان الأمازيغي، صدر عن الجامعة 2007

* عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية
* عضو مؤسس لبعض الجمعيات الثقافية المغربية
* عضو منظمة كتاب بلا حدود
* عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب
* عضو المنتدى السردي بتطوان- المغرب
* مدير مكتب الجامعة الحرة بمدينة أمستردام
* رئيس تحرير مجلة الفوانيس الرقمية الصادرة من هولندا

* يساهم بالكتابة في شتى المنابر الأدبية والفكرية الورقية والرقمية،

وله صفحات بمختلف المواقع الرقمية على شبكة الإنترنت.

* مراسل صحافي لبعض الجرائد والمواقع العربية، كجريدة الصحيفة المغربية التي ساهم فيها

بزاوية أسبوعية عنوانها (رسالة هولندا)

* حاز الجائزة الأولى الخاصة بالشعر العربي، التي نظمتها جمعية الهجرة للثقافة والفن بأمستردام، وذلك بتاريخ 17 أبريل 2005، عن قصيدة ذاكرة العشق الموءود، المترجمة إلى اللغة الهولندية، والمنشورة في كتاب خاص بهذه الجائزة.

* والآن يشغل منصب نائب رئيس جامعة لاهاي العالمية للصحافة والإعلام، ويشرف على كلية الصحافة والإعلام الأمازيغي.

* يمكن التواصل مع الكاتب عبر الموقع الرقمي:

www.tijaniboulaouali.nl


التجاني بولعوالي
الموت على طريقة الكوبوي
إن مصطلح الكوبوي يتعدى دلالته الحرفية أو اللغوية التي تعني راعي البقر، إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يحيل على ذلك الإنسان الأمريكي المسكون بهاجس الحركة، بحثا عن مغنم ما أو مورد ما أو ثروة ما، مما يجعله يقع باستمرار في التنازع مع الآخر، وهذا الآخر يتعدد حسب السياق الذي يتموقع فيه الكوبوي، باعتباره صانعا للحدث إن حقيقة أو زعما، ومن ثمة يستحق. وفق السرد الفيلمي والأسطوري أن يكون رمزا للقوة والتفرد والشخصية المتميزة والخارقة.
ها هو الكوبوي إذن، يجثم على بلاد الرافدين، ليمتص دم شعبها البريء، ويمتص نفط أرضها المعطاء، بالموت نفسه الذي أباد به الهنود الحمر، يبيد به العراقيين، وبالجشع نفسه الذي استولى به على أراضي الهنود الحمر، يستولي على تراب العراق،
ذات السيناريو يتكرر، ليعيد التاريخ نفسه بقوة، كأنك تشاهد فيلما هوليوديا، كل ما فيه جديد إلا البطل، المكان هو العراق، الزمان هو بداية الألفية الثالثة، الخصم الذي يواجهه البطل هو الشعب العراقي، الأسلحة هي الطائرات والصواريخ والدبابات... لا المسدس أو البندقية، المشاهدون ليسوا معدودين يقبعون في دور السينما، وإنما هم كثر يتابعون الحدث في كل حيز وآن.
كل شيء، إذن، جديد إلا الكوبوي، الذي أبى التنازل عن شخصيته النرجسية، رغم أنه يعتبر نفسه صانعا للحداثة والموضة والتغيير والعولمة، إلا أنه في أعماقه يظل مسكونا بهاجس التفوق والسمو والتفرد، لذلك نراه يحاول ترجمة ذلك إلى كل العالم وعبر كل الوسائل والأدوات من سياسة وإعلام وعسكر وغير ذلك.
مركز الحضارة العربية